بسم الله الرحمن الرحيم

بعدما أرسل جودت سعيد هذه الأجوبة بالبريد إلى عبد الجبار الرفاعي وصلت منه رسالة بعثها من قم إلى دمشق يقول فيها:

"تسلمت ببالغ السرور يوم أمس إجاباتكم على أسئلة "قضايا إسلامية معاصرة" وعكفت على مطالعتها فور وصولها، وأوقفت كافة أعمالي الأخرى وفرغت منها قبل قليل. وبصراحة أقول إن أجوبتك بهرتني، وأدخلتني في عالمك الفكري الممتد من جديد. إن تجربتي مع كتابات جودت سعيد قديمة. فقد استعرت كتابه " حتى يغيروا ما بأنفسهم"، قبل عشرين عاماً من أحد العلماء، يوم كنت في الحوزة العلمية في النجف الأشرف قبل هجرتي. وكان ذلك الكتاب هو أول كتاب قادني إلى فكر جودت سعيد، إذ تعرفت في فضائه على عالم دين ومثقف مسلم يفكر مثل مالك بن نبي..."

وختم رسالته بقوله بعد ذلك: "إني أثمن الروح الحرة التي يفكر بها عقل جودت سعيد. كما أحترم الجرأة والشجاعة التي تتسم بها مواقف سعيد الفكرية. وأعتز بالعمق والوضوح والجدية في طرح هذه المواقف والدفاع عنها. خاصة إذا تذكرت أن جودت سعيد تخرج من الأزهر والذي هو أحد معاقل العلوم الإسلامية التقليدية. وما يسود في هذه المعاقل من استبداد فكري وآبائية وسلطة للسلف تقمع أية محاولة للتفكير بأسلوب مختلف عما هو متعارف.

شيخنا المبجل: العدد الثالث من مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" الخاص بالفكر العربي المعاصر أُغلق منذ فترة لاكتمال موضوعاته، وسيصدر في غضون شهر ونصف إن شاء الله، لذلك أدرجت حواركم في العدد الرابع الذي شرعت في إعداد مادته ومحوره "منهج التعرف على القرآن الكريم" وسيكون عنوان الحوار "سنن تغيير النفس والمجتمع في القرآن" وقد لاحظت عند مطالعتي له أنه مناسب لمحور القرآن في العدد الرابع وأشد لصوقاً به من العدد الثالث "الفكر العربي المعاصر"، لأن الله تعالى منحك توفيقاً متميزاً في توظيف النص القرآني واستدعاء آيات القرآن لإضاءة الموقف من الإشكاليات التي تداولها الحديث. وربما أدرج هذا الحوار وأنشره ككتاب في سلسلة كتاب "قضايا إسلامية معاصرة" بعد نشره في المجلة في المستقبل مع ما قد يرد عليه من مناقشات. وأتمنى أن أوفق للمجيء إلى الشام لإغناء هذه المدارسة معكم ونشرها في السلسلة. وتفضلوا بقبول خالص الامتنان والتقدير".

أخوكم عبد الجبارالرفاعي

إيران – قم

أسئلة محرر مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" وأجوبة جودت سعيد

الأخ المكرم عبد الجبار الرفاعي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

وصلتني رسالتك التي توجه فيها اثني عشرة سؤالاً بمناسبة اعتزام مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" تخصيص عددها الآتي للفكر العربي المعاصر كمحاولة للتعريف بأبرز الرموز والاتجاهات الراهنة في المشهد الثقافي العربي. واعتبرتموني أحد الرموز المعروفين في العالم العربي – وإن كنت لا أستحق هذا التعريف – وكان

سؤالكم الأول: ما هي أبرز المحطات في مساركم الفكري + أبرز المكونات الثقافية؟

الجواب: شكراً لك أيها الأخ الرفاعي. ينبغي أن أصارحك بأنك استطعت أن تحملني على الإجابة على أسئلتك، وكثيرا ما أتجاهل أسئلة توجه إلي. ولكن لأهمية ودقة أسئلتك أشعرتني أنك دخلت إلى عالمي الفكري ودخلت إلى الزوايا الخاصة لهذه التركيبة الفكرية، ولامست بقوة القضايا التي تشغلني جداً. شكراً لك مرة أخرى على الجهد الذي تبذلونه لإحياء الفكر وهنيئاً لك على هذا التخصص الذي كرست نفسك لخدمته والعمل فيه.

محطة التساؤل فلسفي

تسألني عن المحطات الفكرية في مسيرتي. إنه سؤال مهم ودقيق ولكن هل يمكن أن أجيب على مثل هذا السؤال؟ هل يمكن أن يتذكر الإنسان الظروف التي وجهت حياته الفكرية؟ لا أظنني أستطيع أن أحيط بدقة بالمؤثرات التي جعلتني كما أنا، ولكن مع ذلك فإن المحاولة ليست غير مفيدة، بل علينا أن نذكر ما أمكن من هذه المؤثرات. ربما يمكن أن أقول أنني عدت مرة من المدرسة وأنا في الصف الثاني الابتدائي وقد أخذنا درساً في الصلاة عن ماذا نقرأ في القعدة الأخيرة من الصلاة وكان الكتاب الذي نتعلم منه يذكر صيغتين للتشهد: الصيغة التي يرويها ابن عباس والأخرى التي تروى عن ابن مسعود. وفي ذلك الوقت لم يكن لي قدرة على التمييز. فلما عدت إلى المنزل سألت والدتي عن التشابه والاختلاف في الدعائين، فنظرت بدقة في الكلمات المكتوبة على التعليق وقالت لي، هذه الصيغة هي التي نحن عليها فهي الصيغة التي اختارها الإمام الأعظم أبو حنيفة وهذا مذهبنا والأخرى للمذهب الشافعي. هكذا كان الجواب، ولكن أين ذهب تفكيري أنا. لقد كنت أخجل من السؤال ولم نكن نجرؤ على سؤال الأستاذ أو الوالد وكنا نتجرأ على سؤال الأم فلهذا سألت والدتي. وهكذا أجابت أن هذه الصيغة هي الصحيحة وهي مذهب الإمام الأعظم. ولكن الذي خطر في بالي بعد جوابها لم أجرؤ حتى أن أوجهه لوالدتي. فقد خطر لي أن الطفل الذي على المذهب الشافعي لو رجع إلى بيته وسأل والدته لقالت له نحن على مذهب الإمام الأعظم الشافعي. كيف أعرف الصواب بين هذا وذاك؟ لا أعرف ما هي المؤثرات التي جعلت هذا التساؤل يخطر في بالي. ولكن هذا التساؤل الأولي المبكر لا يزال هو التساؤل الفلسفي الذي يشغل العالم. لقد تطور السؤال بعد ذلك ليس إلى معرفة الصواب والحق في المذاهب الفرعية للسنة أو الشيعة بل إلى الأديان المختلفة، إلى المؤمنين والذين لا يؤمنون، بل إلى كيف نعرف الحق.

إن هذا التساؤل الطفولي والفلسفي العميق هو الذي جعلني أصل إلى سؤالك الرابع حين قلت في ذاك السؤال:"تشدد كتاباتكم على وجود مصدرين للمعرفة هما: القرآن وتاريخ العالم وأن الذي يجهل التاريخ لا يمكن أن تكون معرفته سليمة. ما هو موقع تاريخ العالم من القرآن وكيف يكون تاريخ العالم رديفاً للقرآن؟" ما أدري كيف سأقرب للقارئ الفيافي والقفار التي قطعتها حتى وصلت إلى جعل التاريخ مصدر المعرفة. اقتضى هذا مني أكثر من نصف قرن وأنا أحمل هاجس كيف أعرف، وأنني أعرف أنني أعرف. لقد قلبت وجهي في السماء لأجد القبلة التي تعرفني الحق. هذه المحطة الأولى محطة إنسانية. كل إنسان يهجم عليه هذا السؤال المصدع والمحير: كيف أعرف الحق؟ في هذا الخضم كيف سأخرج من سفسطائية الذين يقولون أنه لا يوجد حق كما في الفلسفة القديمة أيام اليونان والفلسفة الحديثة التي اصطدمت بجدار العدمية؟ إن الإنسان العامي البسيط يعاني من هذا وهو لا يكتم ذلك حين يقول لو ولدت في بلد كذا لكنت على دين كذا، وهذا ما في الحديث من أن كل مولود يولد على الفطرة ثم بعد ذلك فأبواه وبيئته تصنعه مسيحياً يهودياً مجوسياً إلخ... هنا يبرز أثر البيئة والآباء كمصدر للمعرفة. والقرآن يدين جعل الآباء مصدر للمعرفة. البيئة الاجتماعية والآباء ليسوا هم مصدر المعرفة. بل مصدر المعرفة يحكم على الآباء والبيئة الاجتماعية بالصواب والخطأ. وهنا من غير أن نشعر اصطدمنا بالسؤال الثامن من أسئلتك التي وجهتها إلى حين قلت: "تكرر في كتاباتك الدعوة للتحرر من الآبائية. أي التخلص من تعظيم الآباء وإعطاء العصمة لهم، وتبرر ذلك بأن الآبائية تحجب أية رؤية جديدة. هل يعني ذلك أنك تدعو للقطيعة مع التراث؟ أليس النمو من دون جذور هو نمو موهوم لأنه كنمو الهوام؟" هنا أتذكر اسم كتاب للرئيس الإيراني خاتمي "بيم موج" ضمنه بيت من الشعر الفارسي ترجمه المترجم بقوله:

يا خفيف الجناح

يا من يتنعم بالنسيم

ما يدريك ما نحن فيه من الظلام والحيرة.

محطة الآباء

ربما آخر المحطات الفكرية التي وصلت إليها، وإن كنت لا أزعم أني مررت بها، هو التخلص من سلطة الآباء. لابد من تحليل سلطة الآباء، سلطة ثقافة الآباء أو الآبائية. إن جعل الآباء مصدر المعرفة مشكلة، وتجاهلهم مشكلة. ولكنهم بشر، "بل أنتم بشر ممن خلق". إنني أختار عناوين لكتبي أجزاء من آيات قرآنية. وأطمع أن أكتب كتاباً بعنوان " بل أنتم بشر ممن خلق". شبهة تعظيم الآباء تأتي من أننا صفر بدون آباء. وكان سؤالك معبراً لما قلت: "أليس النمو من دون جذور هو نمو موهوم كنمو الهوام؟"

هنا تداعي الأفكار وتداعي أسئلتك يذكرني كيف عثرت على فكرة انقلابية عند مالك بن نبي في تعريف التاريخ على هامش كتاب–أظنه "ميلاد مجتمع"– لما قال: التاريخ هو التغير والنمو لأن الزمن الذي لا يحصل فيه نمو وتغير زمن ميت. وضرب المثل بالنمل والنحل أنه من ملايين السنين هي على هي عليه في حياتها. فلو حذفنا مليون من تاريخها ووصلنا السابق باللاحق لما شعرنا بأن شيئاً سقط. بينما الإنسان ليس كذلك. الإنسان صيرورة مستمرة "يزيد في الخلق ما يشاء...ويخلق ما لا تعلمون ". يا خفيف الظل، يا من يتمتع بالنسيم، يا أخي عبد الجبار، كم نحن في حاجه إلى البيان وإلى النور وكم نعيش في الغبش والظلام، وكم نحمل من آصار "أثقال" تعيق نمونا وحركتنا، وكم نحمل من أغلال على أيدينا وأرجلنا. ومهمة النبوة هي "ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم".

محطة آخر الزمان

محطة فكرية أخرى في ضحى يوم في نهاية الأربعينيات من هذا القرن. حين كنت أدرس في الأزهر في القاهرة خطر لي وقلت لنفسي إنهم يوحون إلينا أننا في آخر الزمان وأنه ما من يوم إلا والذي بعده شر منه. فكيف سأجند نفسي لمبدأ محكوم عليه بأن يومه أسوأ من أمسه وغده أسوأ من يومه. لولا أن حاجة الإنسان إلى الإيمان لا يمكن قهرها لقطعت الأديان. ولكن الأديان مهما أفسدت تحمل حاجة إنسانية وشعوراً بأن هذا الكون ليس عبثاً وأنه يوجد فيه حق، وإن كان يؤجله البعض إلى اليوم الآخر إن لم يتمكنوا من رؤية ذلك في حياتهم الدنيا. وعند ذلك خطر لي تساؤل: من أين جاءت فكرة "آخر الزمان"، وهل لها وجود في القرآن؟ وقرأت القرآن على هذه النية فلم أعثر على شيء من ذلك، بل عثرت على "من يعمل مثقال ذرة خيراً يره" ووجدت "إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد".. ومن كان يظن أن لن ينصره الله فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع..." ونجد "وعد الله الذين آمنوا... ليستخلفنهم في الأرض ..." الخ. ولكن المجتمعات حين تكف عن الزيادة في الفهم والخلق "الصيرورة" تصاب بالإحباط وتنتشر فكرة آخر الزمان، لأن الزمان توقف عندهم.

أخي عبد الجبار، أنا لست صاحب بيان دقيق. لهذا أطيل الكلام والمحتوى ضئيل. ماذا أقول لك؟ أنا أوجه الخطاب إليك وليس إلى القارئ لأنك أنت الذي أثرت الشجون ولمست الجراح.

إن العالم الإسلامي عاش في التيه ولا يزال وببطء شديد يتحرك. هذا بالنسبة لنا نحن المتلهفين ليقظة العالم الإسلامي، ولكن الذين ينعمون بنومنا ينظرون إلى الموضوع بشكل مختلف، كأننا نتحرك بسرعة إلى الوعي والفهم.

يا أخي، مشكلة الآباء مشكلة فنحن بدونهم صفر، لأن تراكم تجاربهم هي التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه وبدونهم ينبغي أن نرجع إلى الكهف والغابة التي تمد من يعيش فيها بالغذاء بدون زراعة. ولكن إذا وقفنا عند ما وصلوا إليه وأنهينا التاريخ عندهم نكون رجعنا إلى الكهف ولكن بمعنى آخر وكهف آخر لأننا نكون أوقفنا عجلة الزمن أيضاً. إن العلاقة السليمة بالآباء هي أن "نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم". إننا في حالة صعبة، لا قدرة لنا على تجاوزهم. يا رب الضوء! الضوء! نريد أن نرى الأمر كما هو وليس كما رأى آباؤنا. نعم إنهم من ألف وأربعمائة عام ظلوا في انحدار وكل هزيمة ترقق الهزيمة التي قبلها. أنا لا أحمل أي ضغينة للآباء. إنهم أدوا دورهم ولم يكن أمامهم تاريخ مثل الذي أمامنا. إنهم معذورون، ولكن ينبغي أن نتخلص من السلبيات ونرى ما زاد الله في خلقه المستمر. والذين قاموا بالحركة كانوا غيرنا، ولم يكن العالم الإسلامي وراء الإضافات الحديثة في العالم. "وتلك الأيام نداولها بين الناس".

إلى الآن لم نفهم الواقع والتاريخ لأنهما ملغيان عندنا بواسطة النص، بينما التاريخ والنص هما الزوجان الذي بدون أحدهما يصاب الوجود بالعقم. إن تقنية الكتابة هي نقل المعنى والخبرة بالرمز، شيء جديد في حياة الإنسان. ميزة الإنسان عن غيره من الكائنات الحية أنها كلها تحمل سلوكها في جيناتها. بينما الإنسان لا يخرج من بطن أمه ومعه سلوكه ومستقبله كباقي الأحياء. الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ويبدأ تعلم سلوكه بعد الولادة. كان المناطقة يقولون: الإنسان حيوان ناطق، لأن الإنسان كان ينقل الخبرة بالنطق، بالكلام. ونحن لا نعلم متى تكلم الإنسان بدقة. ولكن نعلم بدقة متى كتب ونعلم ذلك بدقة لأنه ترك أثره على الحجر والجلد والورق من خمسة آلاف سنة، وهذا الذي نسميه نص وكتاب. الكتاب مقدس لأنه التقنية التي حفظت الخبرة البشرية. كانت الخبرات تذهب وتضيع بموت الإنسان لأن الدماغ البشري حين يموت تموت معه الخبرة. عاش الإنسان في الحياة الشفهية وأخذ هذا وقتاً طويلاً جداً. ولم ينّزل الله كتاباً حتى تعلم الناس الكتابة وحتى آخر الأنبياء لم يكن كاتباً. لهذا قال الله عن آدم من أنه علم آدم الأسماء ولم يقل أنزل عليه كتاباً. الإنسان تعلم كيف ينطق ويضع الرموز الصوتية على المعاني، له قدرة على التسمية. إذا حصلت الخبرة والفهم يمكن أن يضع الإنسان الاسم لكل المستجدات المادية والفكرية. هذا معنى علم آدم الأسماء، لا أنه علمه جميع اللغات. ولكن الإنسان تعلم تقنية الكتابة لاحقا. ولهذا "القرآن" –وهذا الاسم بالذات من تقنية الكتابة وفك الرموز، أي قراءتها. وأول كلمة في آخر رسالة هي "اقرأ"، لأن الرمز لا يستقل بذاته فنحن الذين نولد العلاقة بين الرمز والمرموز، وهنا مشكلة النص. النص لا قيمة له بدون ارتباط بواقع، والواقع ضائع بدون نص، فصار النص شيئاً أساسياً في حياة الإنسان. لا يمكن أن يعيش الإنسان بدون نصوص. والتقنيات ازدادت ليس بالكتابة فقط بل بحفظ الكلام والصوت، بل وأضيفت إليه الصورة. إننا نتعلم بتبلد شديد صلة النص بالواقع أو الاسم بالمسمى. لهذا الله بالذات يقول لنا إذا عرفتم الواقع ستعرفون أن هذا الكتاب حق لأن الكتاب المنفصل عن الواقع يمكن أن يضل بل ينبذونه وراءهم ظهريا. ولو اقتصرنا على النص في فهم الفلك الدوار لظللنا نقاتل بعضنا بعضاً على التفسير ولكن الذي حسم المشكلة ليس النص بل النظر إلى الفلك والنظر إلى ما في السماوات وما في الأرض، إنها آيات الآفاق. والنظر إلى طبيعة الجهاز العصبي الخازن للخبرات هي "آيات الأنفس". ما لم نقر ونعترف بالعلاقة بين النص– الكتاب– والواقع الذي يتحدث عنه سنظل في التيه وتكفير بعضنا بعضا.

محطات أخرى

(محمد عبدو): لما قرأت سطراً واحداً لمحمد عبدو يقول فيه: هؤلاء الذين يقيمون القيامة على الدين لم لا يقيمونها على حبهم للدنيا؟ هذا الكلام أثر في كثيراً. مزق التابو المحرم. مزق الحاجز. فقلت في نفسي: إذن يمكن أن نفهم الوضع بشكل مختلف.

(محمد أسد): وكذلك لما قرأت كتاب" الإسلام على مفترق الطرق" لمحمد أسد– لا أذكر الفكرة ـ عثرت عنده على فكرة حلت مشكلة عندي. فصارت المشكلات كلها قابلة للحل.

وبعدها فهمت قوله تعالى "سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون." "سخر" أي كلفه خدمة بدون أجر. نحن نأمر والكون ينبغي أن يستجيب وإذا لم يستجب فالخلل ليس في الكون وإنما فينا نحن. ولكن نمو الأفكار كان بطيئاً وإن كانت هناك محطات مضيئة.

محطة مالك بن نبي

مالك بن نبي هذا وأنا طالب وكلي عين وأذن وأطبخ ما أرى وأسمع وأحلل إلى أن تخرجت من الأزهر في أواسط الخمسينات من هذا القرن الميلادي. فوقع في يدي كتاب"شروط النهضة" لمالك بن نبي فكانت المحطة الكبرى في المسيرة الفكرية. أول مرة لم أفهم جيداً ماذا يريد ولكن أحسست بنموذج جديد للفهم والتحليل فقرأت وقرأت ودرست. بعد ذلك كنت أقرأ كل كتاب كان يصدر له بتأمل حرفاً حرفاً سطراً سطراً أجمع المتماثلات المبعثرة في كتبه من أماكنها وأقربها للنظر ثم أبعدها وأتأمل فيها. ربما قرأت كتاب الأفريقية الآسيوية أكثر من ثلاثين مرة، وكنت أبدأ عند تدريسه بالفصل الخاص بالأفريسيوية والعالم الإسلامي وأعظم ما أثر في فكرة "القابلية للاستعمار". هذا المفهوم كبير وينبغي أن يكبر أكثر مما عند مالك. إنه المفهوم القرآني "ما أصابك من سيئة فمن نفسك". إن مالكاً شذ عن النغم الذي كنا تعودنا سماعه عند الأفغاني وعبده وحتى إقبال. كم صدمني هذا حين حول نظره عن لوم الأعداء: الاستعمار، الإمبريالية، الصليبية، الصهيونية، الماسونية، وكل الأعداء. حيث لم يكن متدين أو علماني يقف على منبر إلا ويلقي اللوم والتبعية على الآخرين المذكورين كلهم. ولكن ما أشد خفوت الصوت والكلام عن سيئاتنا التي تمكن الآخرين من التلاعب بنا– هذا إن وجد صوت وكلام عن سيئاتنا. هذه فكرة عملاقة. إنها تغيير في توجيه المسؤولية، وكم كان مفاجئاً لي لما قال: إن العالم الإسلامي حين يلتقي في المؤتمرات يجعل المشكلة الفلسطينية هي المشكلة الأولى للعالم الإسلامي وهذا خطأ لأن القابلية للاستعمار والتخلف الذي نعيشه هو المرض الحقيقي، وما فلسطين وكشمير وأريتيريا و و...إلا أعراضاً للمرض الأساسي، وكم كان مؤلماً لي حين قال: إن القابلية للاستعمار تكونت عندنا قبل أن يخطر في بال الاستعمار أن يستعمرنا. وكم كان المخطط الذي رسمه لمسيرة الفكرة الإسلامية في كتابه "شروط النهضة" معبراً حين جعل المنطلق من غار حراء إلى صفين إلى ابن خلدون ثم إتمام الانحدار إلى الاستعمار والتخلف، وكم كان صادقاً ومفاجئاً حين قال: إن القابلية للاستعمار لم تصنع في باريس ولندن وواشنطن وموسكو، وإنما صنعت وتكونت تحت قباب جوامع العالم الإسلامي ومساجده من بخارى وسمرقند ودهلي وطهران وبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان محور طنجة، جاكرتا. وكم كان محدقاً بعمق للمشكلات حين قال أيضاً: إن إنساناً يجهل إضافات القرن العشرين للمعرفة الإنسانية لا يمكن إلا أن يجلب السخرية والتشنيع إلى نفسه. ترى يا أخي عبد الجبار والألم يعتصر قلبي من بطء الحركة والتبلد الذي نبديه، ليس فقط أننا متبلدون بل نلقي حلة مثالية على عوامل تخلفنا وعندنا استعداد حتى الموت في سبيل الحفاظ عليها.

(محمد أركون): ماذا سأذكر من المحطات؟ ربما آخرها أيضاً قراءتي لمحمد أركون. هذا الرجل عنده شيء لا هو مقدس ولا هو دنس حقير كما يقول مالك بن نبي عن العالم الإسلامي الذي يرى الأمور إما بشكل طاهر مقدس أو دنس حقير وما أسهل وأسرع أن يتحول أحدهما إلى الآخر فيتحول المناضل إلى عميل خائن والمؤمن إلى كافر زنديق.

محطة محمد إقبال

أما محطة إقبال ليست مثل محطة مالك بن نبي، المهندس الكهربائي. إن إقبالاً شاعر صوفي محلق في الملكوت يحاور الإنس والجن والشياطين والاستعمار ويحاور رضوان، خازن الجنة. يقول إقبال:

أبصرت عيناي نبض الأنجم   وبعرق البدر دورات الدم

علم إقبال كمّ هذا الكون وكيفه، وفهم أن الإنسان جارحة القدرة الإلهية وهو الذي علمني أن الإسلام والقرآن وإن نشئا في عصر ما قبل العلم فإن القرآن بشر بعصر العلم. وهو الذي علمني قيمة آيات الآفاق والأنفس حين قال: القرآن يعتبر الآفاق والأنفس مصدراً لمعرفة الحق. وهو الذي أضاء ولا يزال يزداد ضوءاً قوله تعالى: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد"، وإقبال هو الذي قال عن نفسه وعن جلال الدين الرومي:

صير الرومي طيني جوهرا   من غباري شاد كوناً آخرا

كذلك وضعني إقبال على طريق المعرفة كما قال الرومي عن شمس الدين التبريزي حين افتقده وظل يبحث عنه دون كلل حتى تنبه يوماً فقال: أنا ما كنت أبحث عن شمس، أنا كنت أبحث عن نفسي فوجدتها. فعاد وكف عن البحث عن شمس تبريز. إقبال هو الذي فهم مغزى ختم النبوة. وما أهم هذه الفكرة. التاريخ هو الذي سيكشف في المستقبل أهمية هذه الفكرة. نحن نقول إن محمداً (ص) خاتم النبيين، ولكن ما ثقل ووزن هذه الفكرة؟ إن النبوات من عهد نوح إلى محمد أقل من خمسة آلاف عام من بدء النبوة وختامها. وبعد مليون سنة كيف سيكون الناس؟ إقبال يقول: حق أن تختم النبوة حين صارت آيات الآفاق والأنفس مصدراً لمعرفة الحق. إن إقبالاً هو الذي ساعدني على معرفة كيف أعرف الصواب والخطأ بين المذهب الحنفي والشافعي لما قال: إن طريق معرفة الحق في المذاهب والفلسفات والأديان والثقافات والحضارات هو أن تنظر إلى نموذج الإنسان الذي أنتجه هذا الدين أو الثقافة. وإقبال كان نظره الفزيولوجي قصيراً ولكن رؤيته الفكرية كانت محلقة. فإقبال حل لي مشكلة الشريعة بأفكاره العملاقة، شريعة الله هو العدل وكل ما هو أقرب إلى العدل هو شريعة الله. إن المحور الذي تدور عليه الشريعة هو العدل. وأما بالنسبة لتفاصيل الأحكام فكل عصر يمكن أن يقترب من العدل والإحسان كأهداف أسمى. لقد ذكر ذلك حين ناقش مسيرة الأتراك ومفكري الأتراك أيام الانقلاب العثماني.

ماذا سأقول... يا طير، يا خفيف الجناح، يا من يتمتع بالنسيم، ما يدريك ما نحن فيه من الظلام والحيرة والاقتتال والذبح لبعضنا؟ أين المضاءة أين الدايزين على رأي هيدغر؟ أين النور؟

أظن إلى هنا حاولت أن أجيب على السؤالين الأولين: المحطات الفكرية والمكونات الثقافية.

المسار والمحطات

إنني بدأت بالاتجاه السلفي ثم توقفت على محطة الأفغاني وعبده ثم تابعت السير مع إقبال ومالك بن نبي، ولكن أركون شدني إلى ما يقال عنه الحداثة وكان هذا أشده علي. لأن سيطرة الغرب على العالم غلاب لا يمكن أن يكشف على هناته بيسر. وساعدني إقبال على ذلك لما قال مخاطبا الغرب: إن حضارتكم هذه ستبخع نفسها بخنجرها لأن العش الذي يبنى على غصن ضعيف لا يثبت، وإن ناركم لم تحرقني لأنني على ملة إبراهيم، وإن نوركم لم يخلب بصري لأنني اكتحلت بأثمد المدينة. إن الغرب مشكلة. حبذا لو تمكنا من تقبل أحسن ما عندهم وأحسن ما ابتكروه ونتجاوز عن سيئاتهم. إن الحداثة بحلوها ومرها تقدم لنا. ومشكلتنا أن بعضنا لا يرى فيها إلا الضلال والفساد، وبعضنا لا يرى ولا يمكن أن يرى إبداعهم وما دفعوا إليه البشرية. إن هؤلاء الغربيين لم يبتكروا وسائل نقل غير الحمير والبغال والخيل والجمال فقط. إنهم أيضاً ابتكروا وسيلة لانتقال الحكم غير الذبح والسحق والسحل، وهذا أعجب كثيراً من وسائل نقلهم المادية التي نتلهف على شرائها، شرائها لا صناعتها إلى يومنا هذا. ولكن وسائل النقل في السياسة والحكم فلسنا مهيئين إلى الآن لتقبله وسبب ذلك أنه لا يوجد فينا من يؤمن بقوة الفكرة وأنه يمكن أن يقنع الناس بدل أن يرهبهم– لا العلماني ولا الإسلامي– وبخصوص الديمقراطية وانتقال الحكم بإقناع الناس ولو بالتلاعب وليس بالتسلط عليهم بالكرباج والحديد والنار. هذا الحدث جديد جداً وإن كان قديماً في رؤية أخرى. إن المسلمين لما فقدوا الرشد أحسوا بأنهم فقدوا شيئاً كبيراً وعبروا عنه بقولهم: أتريدون أن تعيدوها هرقلية، إذا ذهب هرقل جاء هرقل؟ ولكن لما تطورت البشرية وزاد الله في خلقه ما يشاء وخلق ما لا نعلم من الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون.

قلب المفاهيم

إن الحداثة هي التي قلبت مفاهيم الناس عن الكون حين قلبت فكرة مفهوم الشمس التي تدور حولنا وأننا نحن المركز. حين تحولت المركزية عنا فزعنا فزعاً شديداً أعني الإنسان، وكان عند الناس استعداد أن يموتوا في سبيل بقاء الفكرة القديمة وأن يقتلوا الآخرين كذلك من أجله. هذا الانقلاب الفلكي كان بدء الحداثة وأخذوا صورة جديدة عن العالم، ثم خلقوا المحرك البخاري والناري وخلقوا بدل الخيل والبغال مراكب لم يخطر على بال السابقين ولا في خيالهم. ثم بعد النظر بالمرقاب إلى الأفلاك نظروا إلى الصغائر بالمكبرات فكشفوا عوامل المرض والأوبئة، فتعافى الناس من كثير من الأمراض ولا يزالون يسيرون بخطى حثيثة.

أما الانقلاب الكوبرنيكي الآخر في علوم الاجتماع لم نحس به بعد. حدث انقلاب سياسي واجتماعي وإنساني حين تمكن الناس– ليس كلهم بل بعضهم– من فهم أن سبب ظاهرة الليل والنهار ليست حركة الشمس وإنما حركة الأرض ولكن الناس كانوا يرون الشمس صغيرة فلا حرج أن تركض حولنا. أما نحن الأرض فهي كبيرة لا يعرف طرفها وينبغي أن لا يتحرك ويكون ثابتاً. فخلال التاريخ فهمنا الظاهرة الاجتماعية بشكل عجيب يدعو إلى التأمل. رأينا الملوك كباراً جداً غير قابلين للزحزحة، وإن أزيلوا بالقتل لا تزول مكانتهم وإنما تنتقل إلى الذي حل محلهم. ورأينا الشعوب جاهلة خاملة غوغاء عوام وهوام ولا حول لها ولا طول يسجدون لمن يحتل منصب الحكم. إلا أن الانقلاب الفلكي في الغرب تبعه انقلاب اجتماعي أيضاً، فإذا الملوك تأخذ حجماً أصغر حتى بقيت في بعض مجتمعات الحداثة كمخلفات يحتفظون بهيكلها ولم يعد لها سلطان وإن كانوا يتوارثون إلى الآن. وأن الحكم والقوة والاعتبار بدأت تتحول إلى الشعوب وإن كان ببطء شديد في العالم كله. وهذه حداثة اجتماعية كبيرة. لقد كبر حجم الإنسان أو بدأ يكبر وأن وعي الإنسان بالتاريخ يفهم كيف كان الناس يقربون القرابين البشرية، وكيف تحول هذا مع إبراهيم إلى إلغاء القربان البشري. وربما مغزى الاحتفال بهذه الذكرى في عيد الأضحى، عيد الحج عند المسلمين ترمز إلى هذا التطور البطيء. إن الذي حاج إبراهيم في ربه قال: أنا أحيي وأميت. وجواب إبراهيم الفلكي الانقلابي، إنك لن تستطيع تحدي قوانين وسنن الكون. فكما بهت الذي كفر مع الظاهرة الفلكية، كذلك بهت العالم وبهر بالانقلاب الاجتماعي حين أعلن في حجة الوداع ذكرى إبراهيم وإلغاء القرابين كلكم لآدم وآدم من تراب وليس لعربي أو أعجمي أو أحمر فضل على آخر إلا بالتقوى. وقال لنا أن لا نرجع كفاراً أو ضلالاً يضرب بعضنا رقاب بعض. وأوصى بالمستضعفات، العواني النساء. لقد تحولت الأمور من الناحية النظرية وإن كان التحول العملي لا يزال بطيئاً جداً.

وأنا وإن كنت أذكر أشياء خارج الأسئلة فإن الأسئلة هي ضمن مشكلتنا الإسلامية الإنسانية. إنني أرى الوقائع تدل على أشياء تعيد للنصوص التي كانت فرغت من المعنى. إن رسالات الأنبياء جميعاً واحدة. مهما وصفنا المسيحية واليهودية بالشرك والعنصرية، فإن الرسالات واحدة. لب وجوهر النبوة واحد وهو التوحيد الذي إن صح لا تضر معه معصية وإن فسد لا تنفع معه طاعة. "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت". لكل رسول، ورسالات الأنبياء جميعاً واحدة: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. والطاغوت لم يأخذ ما ينبغي من التوضيح والتفصيل في الثقافة الإسلامية التي كتبت حول الكتاب والسنة بل أحاط به الغموض.فَفُهم الطاغوت على أنه الشيطان أو الأوثان، بينما القرآن يقول لموسى اذهب إلى فرعون إنه طغى ويقول: "وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد". فالطغاة والطاغوت تتمثل في فرعون أكمل تمثيل. ولم يرد اسم غير اسم الله أكثر من ورود اسم موسى الذي واجه فرعون، وتوارد اسم فرعون أكثر من سبعين مرة. فهذه مواجه لأعظم حضارة وجدت على ظهر الأرض في تلك الأزمنة. إن القرآن ينطق فرعون بكل مشاعر الطغاة وأحاسيسهم الخفية وما يعلنون وما يخفون. وكذلك ينطق موسى بتوجساته. وينطق ما يحيط من مجتمعات مستسلمة للطاغوت. ينطقهم جميعا. وقصة موسى وفرعون من أكثر القصص التي تكررت في القرآن بأشكال وأطوال مختلفة جديرة بالدراسة لنفهم بنية الطغيان والطاغوت ومنبته ومكوناته. وإذا كانت هذه القصص تحتل من القرآن هذا الحجم فلا شك أنها –وإن لم تخدم بما تستحق– ستكون مادة خصبة لتحليل المشكلة الاجتماعية السياسية.

مشكلة التوحيد

يا سيدي الكريم عبد الجبار لقد أثرت في بأسئلتك شجوناً. إن التوحيد والشرك ليسا مشكلات إلهية سماوية غيبية وإنما هي مشكلات أرضية إنسانية اجتماعية وسياسية. إنها تصحيح علاقات، لأن وحدانية الله لم تكن مجهولة عند قريش الذين رفضوا ما جاء به الرسول فهم كانوا يقرون بوحدانية الله كما نقر نحن الآن، ولكن النزاع كان عن المجتمع الذي يعطي لبعض الناس امتيازات، أي أنهم فوق الشريعة. إن المجتمع الذي يطبق الشريعة على فاطمة كما يطبق على أية امرأة بدوية لم يكن ليطيقه البشر في ذلك الزمان ولا يطيقه الناس في زماننا هذا. ولهذا نجد حق الفيتو في أكبر مؤسسة عالمية ولا ينكره أحد لأن الجميع يتلمظون أن يكونوا في ذلك المكان يوماً ما، لا أن يزول هذا الشرك الأكبر والطاغوت.

لهذا كان إقبال يقول: التوحيد ليس ضد الكثرة، أي تعدد الآلهة. ولكن ضد الشرك أي أن يكون بعض الناس لا يطبق عليهم القانون أو الشريعة، أي أنهم فوق الشريعة. إن فرعون لما...(فحشر فنادى وقال: أنا ربكم الأعلى) أي هو المصدر الأعلى للشريعة "ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل

الرشاد". ولما يقول: "ما علمت لكم من إله غيري" ولما يقول: "لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين". ويقول لسحرته: "آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى". إن في هذه القصص معالم. كما أن عالم الكيمياء له قوانينه كذلك عالم الطغيان له قوانينه في الهدم والبناء. والإنسان كفء أن يبني ويهدم ويهدم ويبني. و"قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها". والآن كما كان، إن الله يقول أن السحرة جاؤوا بسحر عظيم وأن الحبال والعصي يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى. إن الصواريخ والرؤوس النووية مثل الحبال والعصي. إن كلاهما من المواد الكيماوية الذرية، فهي تحت سيطرة الإنسان وليس الإنسان تحت سيطرتها. ولكن نحن مسحورون يخيل إلينا أنها تسعى. إنها لم تستجب للاتحاد السوفيتي حين انهارت هذه الأسلحة التي عبدها. إن الشرك هو أن نثق بعضلات الإنسان لا بفكره. إن طاقة الكهرباء والذرة طاقة عظيمة كبيرة وخادمة خدمة كبيرة. إنها كانت صواعق ولكنها الآن أخدم من الجن في مجالات لا تعد ولا تحصى. ولكن طاقة الإنسان فوق هذه الطاقات كلها لأنها كلها مسخرة له.

هذه مشكلات آخذة بعضها برقاب بعض، ولكن"الأعجب" الذي جاء به الأنبياء هو أنهم جاؤوا بأسلوب انقلابي في العلاقات البشرية الاجتماعية والسياسية. إنه أسلوب اقتصادي بدون خسائر، "مجاناً أخذتم ومجاناً تعطون". قلب الأنبياء علاقة القوة وعلاقة القتل، أي تحول علاقة أنا أحي وأميت إلى علاقة أنا أحي ولا أميت. وحولوا علاقة القتل بالقتل إلى علاقة الامتناع عن القتل. وهذا شئ عجيب وغريب وقلب للأمور الذي عبر عنه بالتحويل، أي بإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. لهذا لم يقل الله اقتلوا الطاغوت وإنما قال: "اجتنبوا الطاغوت"، وقال: "والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى ربهم لهم البشرى فبشر عباد". وقال: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات". ويقول أيضاً: "الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت."

إن الحداثة بدأت في الفلك وفي الاجتماع. ولما بدؤوا يكتبون مقالات من أمثال: "العبودية المختارة" كشفوا أنه لا يمكن لأحد أن يستعبدنا إلا باختيارنا. لا يمكن إخضاع عدد جم غفير إلا بالسحر والتخييل، "يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى". يخيل إليهم من سحرهم أنه يمكنهم أن يقتلوا الناس. فهذا السحر إلى الآن مسيطر علينا. يسيطر علي إلى الآن، مع نوع من الفهم، أنه لا بد من تهيئة المناخ الفكري الذي ينبت فيه الوعي لفك السحر. إننا بكتاباتنا نعقد السحر الذي يديم عبوديتنا المختارة. أحياناً أقول: ما جاء به الأنبياء لم ينزل بعد من السماء إلى الأرض. ما جاء به الأنبياء ليس قتل الناس أو الطاغوت ولكن أن تمتنع عن القتل إذا أمرك الطاغوت بالقتل. هذا الموضوع مهجور وغير مبحوث. ربما يمكن أن يطلق عليه بالمصطلحات الحديثة التي يذكرها أركون "اللامفكر" فيه أو "المستحيل التفكير فيه".

كان مستحيلاً التفكير في دوران الأرض حول الشمس بحسب المعطيات السابقة. وكذلك الآن من اللامفكر فيه أن الحل هو برفض الأمر بالقتل وليس بالقتل. أتمنى أن يُخرج هذا الموضوع من ظلام اللامفكر فيه إلى مجال التداول والبحث والفكر والإضاءة. فبلال وسمية وعمار وياسر كانوا خرجوا من طاعة الطاغوت وتنفيذ أمره إلى التوحيد. نعم امتنعوا عن الاستجابة للطاغوت. إن هذه الحالة هي الرأسمال الأساسي للتوحيد، أن تخرج من عبادة الطاغوت وتجتنب عبادته. لهذا أقول بدل أن يُحاكم أو يُسجن أو يُعدم الشباب الإسلامي لأنهم كانوا يريدون أن يَقتلوا، أريد لهم أن يُسجنوا ويُقتلوا ويُعذبوا لأنهم رفضوا أن يَقتلوا. أليس عجيباً أن لا نعّلم الشباب أن يرفضوا قتل المسلمين، ونوحي إليهم بقتل الطاغوت. كم مرة قتلنا الطواغيت ونبشنا قبورهم ولكنهم لم يموتوا بل تحول قاتلهم إلى طاغوت. متى نفهم هذا ؟

الطاعة والعصيان

جميع جيوش العالم تُعَلّم أن تنفذ الأوامر من غير أن تعترض والسلطة الآمرة هي المسؤولة. هذا شريعة الناس، ولكن شريعة الله والتوحيد لا يبيح لك طاعته في معصية الله. أول سورة نزلت من السماء علمتنا كيف نعصي القانون الظالم "أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ...كلا لا تطعه واسجد واقترب". يحرم على الجنود في كثير من البلاد الإسلامية أن يعلنوا صلاتهم في ثكناتهم. تعلم أن طاعة الله هي في الصلاة وعصيان من ينهى عن الصلاة. تعلم العلم الذي يعلمك إمكاناتك في التغيير وبدون خسائر وبربح دائم، الحسنة بعشرة أمثالها. لقد أذاعت الأخبار أن الجيش التركي سرح أكثر من ثلاثين من كبار

الضباط لأنهم غير منضبطين ولا يخفون عبادتهم في الثكنات. لما تتعلم كيف تصلي وتتحدى الطاغوت يمكنك أن تتعلم وتعلم وبعد ذلك ستتعلم كيف تتجنب طاعته إذا أمرك بقتل المسلمين الذين هم مثلك تماماً. فكن قدوة لهم في تعلم:لا تطعه. إنهم ينتظرونك كما تنتظر، فكن السابق لطاعة الله ومعصية الطاغوت.

*أليس من الغريب أن يسكت عن الجنود الذين احتلوا الكويت كأنهم أبطال؟ ولكن هذا السكوت جلب السكوت عن سوق الجنود العربية لدحر العراق. ألا نتعلم الكف عن طاعة الطغاة؟ إنهم سيظلون يأمرون بالقتل مادام أمامهم جنود يقولون حاضر يا سيدي. هذا ما مارسه بلال الذي كان لا يملك حريته. إنه كان عبداً مملوكاً لسيده. ولكن بلالاً تعلم أن له سيداً آخر له الطاعة في أوامره. فإن كان أمر سيده الأرضي موافقاً لطاعة ربه فسمعاً وطاعة، وإن خالف فلا سمع ولا طاعة "فاقض ما أنت قاض". هذه هي كلمة التحدي من السحرة لفرعون.

*إن موضوع التوحيد وموضوع الشرك صار غائماً وغامضاً، ولم نقم بواجب التبليغ، فكيف نبلغ ونحن لم نحمل فهماً ولم نحمل بعد رسالة. فكما أن رسالة الأنبياء جميعاً: "اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت". كذلك يقول الله: "ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين". أليس من السهل أن نرى كيف حبطت أعمالنا وكيف أصبحنا خاسرين؟ ومن أخسر منا أعمالاً في العالم أجمع؟ كل يوم يُصب علينا العذاب المهين الذي يشعر بالخجل أمام نفوسنا. إن كنا نخجل من أنفسنا أمام أنفسنا، فهل نستطيع أن نرفع رأساً أمام أحَدٍ آخر؟

*إنني أقرأ العالم وأفهمه فهماً مختلفاً. والتطور العالمي يجعل القرآن مضيئاً أكثر ويشد من أزري ويجرؤني على مواجهة العالم وعلى الصدع بالذي فهمته.

*إنه قوة الشعور بتواطؤ سنن الله في الكون وشريعته في الكتاب. إن مصدر سنن الأكوان وسنن القرآن واحد، فإذا تواطأ أضاء بنور كبير وشعر الإنسان بالأمن والطمأنينة.

*إن آية "لا إكراه في الدين" حيدت القوة ولم يجعل الله للقوة المادية على قلب الإنسان سبيلاً ولا سلطاناً. لقد حمى ضمير الإنسان من الإكراه بالقوة، لأن الإيمان الذي يأتي بالإكراه ليس بإيمان. كلا! ولا الكفر الذي يأتي بالإكراه يكون كفراً. بل للإنسان حق أن يبقى كافراً حتى بعد أن تنتصر عليه. ونحترم الإنسان ونقبل كفره ولا نريد أن نجعله منافقاً.

*إن الحداثة ولو نظرياً أقرت بأنه لا سلطان لأحدٍ على ضمير إنسان. فمن هنا أقروا بحرية العقيدة، وتوجوا دساتيرهم بهذه المادة التي تحمي اعتقاد الإنسان وأن لا يُغير بالإكراه وإنما بالإقناع. ثم إن الإلغاء للقوة وإلغاء السلطان على عقيدة الإنسان ترسخ وتأكد حين بلغت القوة المادية درجة يتمكن معها من تدمير الأرض والحياة فيها. فهذا التضخم للقوة نتجت عنه نتائج مهمة واضحة.

إن الإلف القديم والخضوع القديم للقوة لا تزال مستمرة، إلا أنها أيضاً تتضاءل باستمرار ثابت. فمنذ الانفجار الأول للقنبلة النووية منذ خمسين عاماً حدثت حداثة جديدة لم يتفهمها العالم تفهماً واعياً، ولا يزالون يتحدثون اللغة القديمة لغة التهديد، وإن كان فات أوانها. وهذه اللغة نُسخت فعلاً، وإن لم تنسخ نظرياً. وهذا عكس لكثير من الأفكار التي نقر بها نظرياً ولكن لا ننفذها عملياً. فمشكلة القوة قد صارت عملية قبل أن تتقرر نظرياً. فالقوة نسخت عمليا ولو أنها مقر بها نظرياً. فمثلاً، عالم الكبار لا يستطيعون أن يتقاتلوا. وهم فهموا هذا جيداً ويلتزمونه فيما بينهم عملياً لأن القوة لم تعد الوسيلة الفعالة لحل المشكلات فيما بينهم. لهذا وقف العنف والقتال في عالم الكبار، وإن كانوا يديرون أعمال العنف والقتال في العالم الآخر الذي لا يزال يسيطر عليه الإيمان بأن القوة فعالة. ولكن ينبغي أن لا ننسى أن عالم الصغار أمثالنا إذا بدؤوا القتال فيما بينهم على الطريقة القديمة، فسيتحول ذلك لصالح الكبار.
ويمكن أن نقول باطمئنان: أن كل من يحاول أن يحل مشكلته في عالم الصغار بالقوة يكون با ع قضيته لأعدائه الكبار، سواء كان بادئاً بالعنف أو راداً للعنف بالعنف.

لقد بطل العنف والعنف المضاد. إن عالم الكبار يسقط من سقط منهم بدون قتال كما حدث للاتحاد السوفييتي الذي سقط من الداخل. "فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم"، ولم يكن سقوطهم من عدو خارجي متدخل بالعنف. وفي المقابل، ارتفع اليابان وهو البلد الذي استسلم بدون قيد أو شرط تحت وطأة القنبلة النووية. فبدون قنبلة نووية وبدون حرب أهلية استطاعوا أن يقفوا على أقدامهم مع السبعة الكبار في العالم.

هذه الأحداث لها قيمة. إنها خاضعة لسنن الله. إن اليابانيين بشر أيضاً، وإن لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ولا مسلمين. وهذا أدعى لأن نفكر كيف حدث ما حدث.

القوة والفكر

لهذا يا أخي عبد الجبار إن الإعداد بالقوة ليس في السلاح المادي. لقد بطل الجانب الذي أشار إليه القرآن من القوة المادية ومن رباط الخيل. فما أظن أن أحداً يريد أن يبني إسطبلات لتربية الخيول للجهاد. فكذلك الرماح والسيوف والدبابات، بل والقنابل النووية والنترونية أيضاً. ولكن الإنسان قادر على التسخير بفكر "تبارك الله أحسن الخالقين"، لأنه أنشأه خلقاً آخر قادراً على التزكية والتدسية وقادراً على التسخير.

وترتب على انفصال القوة المادية من الفكر في الغرب بروز الوحدة الأوربية. فهي ليست نتيجة القوة، ولكن هي نتيجة إلغاء القوة المادية، أي في أن لا تكون القوة سبباً في الامتيازات. " أن تكون أمة هي أربى من أمة". إن أوربا لم يوحدها هتلر ولا نابليون، وإن كان كل واحد منهما وصل إلى روسيا في شرق أوربا ووصل إلى البلاد العربية في جنوب البحر الأبيض إلا أن الأول مات منتحراً والثاني مات منفياً. والآن تتحد أوربا، ليس على أساس "ألمانيا فوق الجميع" أوفرنسا فوق الجميع. وإنما ألمانيا الآن مثل الجميع، ولو بقيت بعض العنجهيات تنق ببعض الكلمات الشاذة النابية (العنصرية). فالكلمات المتعالية تفوح منها أيضا رائحة كريهة على النفس كالتي سماها رسول الله "دعوها فإنها منتنة".

أنا لا أجهل ما يتبادر إلى الذهن من الاعتراض علي بإسرائيل التي تعتمد القوة في منشئها وبقائها واستمرارها. ومن كانت حياته تعتمد على شيء ميت فهو ميت، وإن خيل إلينا أنه حي وله صخب وضجيج يصم آذاننا. إن مالك بن نبي شبه إسرائيل بالمنديل الأحمر الذي يحمله مصارع الثيران، فالمصارع يلّوح بالمنديل الأحمر حتى يهيج الثور، ولكن الثور بدل أن ينطح المصارع ينطح المنديل الأحمر والمصارع بدوره يطعن على كاهل الثور الهائج. إن في التاريخ لعبرة. إن فرموزا ظلت نحواً من ثلاثين سنة لها حق الفيتو الصيني، ولا يُعترف بالصين ويُعترف بفرموزا. ولكن تخلى الأمريكان عن فرموزا، وإنكلترا عن هونج كونج وعاد حق الفيتو إلى الصين، وإن كان لا يُشرف الصين بهذا الحق غير الحق.

إن الذين يريدون إبقاء الأمل بالسلاح محتجين بإسرائيل فقد استجابوا للهدف الذي من أجله أنشئت إسرائيل لصرف الأنظار عن المشكلات الحقيقية والانشغال بالمشكلات الثانوية. لقد صدمني مالك بن نبي حين لم يعتبر إسرائيل مشكلة أساسية. وصرت أفهم ويزداد فهمي لهذا أكثر فأكثر إلى أن جاءت حرب الخليج الثانية فقصمت ظهر البعير وفضحت العرب والمسلمين وكل المتخلفين حيث نسينا إسرائيل لما برزت المشكلات التي فينا: الثقافات الخرافية التّي ورثناها من الجاهلية.

"وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا".

أفكار وتساؤلات

خبرات للاعتبار

في حرب الخليج فهمنا أن بلداً عربياً قوياً أخطر على كل العرب من إسرائيل ومن وراء إسرائيل. على كل حال إن إسرائيل ستبقى عرضاً للمرض. فحروب إسرائيل لم توقظنا، ففي عام 1948 فسرنا المشكلة بالحكام الرجعيين الخونة الذين باعوا فلسطين أو تخلوا عنها وصرنا معجبين بالانقلابات المزركشة

تلو الانقلابات لا تقل رجعية عن رجعية الرجعيين. إن المسلم والعلماني مثل بعض، وإن كانا متخاصمين. فكلاهما تحكمهما ثقافة واحدة تقليدية غير أصيلة وغير واعية ومتعصبة لماض لم نحلله ولحاضر لم نتفهمه. فلهذا لعب العلمانيون دورهم وهم في أفول. ولكن هل الإسلاميون أبعد منهم نظراً وأعمق تحليلاً؟ ربما الذي يأتي من بعدهم أمامه خبرات للإعتبار. فلهذا وإن كانت ظاهرة الأفغان والجزائر مؤلمة ومؤسفة فإن ظاهرة إيران وتركيا تبعثان على أمل لم يكن متوقعاً كثيراً. إننا لم نتفهم ظاهرة إيران جيداً.

الثورة الإيرانية

وحسب قراءتي للعالم لي نظر خاص بكل من إيران وتركيا. فإيران حدث جديد في العالم الإسلامي لم يسبق له نظير من عهد الراشدين إلى الآن، لأن الأحداث في العالم الإسلامي من زوال الدول والأسر كانت بانقلابات داخلية أسرية. وحسب قانون ابن خلدون في الأجيال الأربعة كانت الأيام تُتداول بين الناس، وكانت الشعوب غائبة. أو كان قواد الجيوش هم الذين يقومون بالتداول. ولكن ثورة إيران ثورة شعب وهي ثورة المرأة قبل الرجل. وهذا حدث كبير وتغيير جذري للرؤية وللحدث. هذه الثورة مثل رائع ومن شدة قوته ربما خفي علينا تفهمه وتفسيره وربما فسره البعض بأنه خارق وشأن إلهي رباني لا يخضع للسنن والقوانين. حين كان الشاه يصدر منع التجول كان الخميني يقول: ينبغي أن تتحدوا الأمر وتكونوا في الشوارع. فيكون النساء مع الرجال إن لم يكّن أمامهم، وهن يقدمن الورود للجنود. وفي مثل هذه المواجهة المرأة فعالة أكثر من الرجل وليست في حاجة إلى تدريب عسكري ولا استخدام سلاح، فقط إعلان أنني حر في اختيار إيماني، أؤمن بهذا وأكفر بهذا واقتلني إن شئت. وفعلا قتلوا ولكن لم يكن ليبقى مكان من يسقط شهيداً فارغاً، بل كان يُشغل فوراً. وهكذا طُرد الشاه بدون أن يطلق عليه نار ولا قذيفة. واستلموا الحكم والسلطة والسيطرة مع كل المآسي والتفجيرات والقتلى والإعدامات ولكن القوة الشعبية قوة غلابة لا تقاوم. هذه القوة جديدة بكل معنى الجدة، ولم يكن نجاحهم كما في الجزائر في صندوق انتخابات. إنه شيء آخر تماماً. ولم يكن مثل الأفغان الذين يريدون أن يحبسوا النساء في البيوت. لم تستطع المعارضة أن تواجه إيران في الداخل رغم مساعدة القوة الخارجية. إن الوعي الداخلي لا يمكن أن تجهضه القوى الخارجية. فلهذا مع كل المشاكل لم يمكن اختراق الثورة الإيرانية وعبرت بسلام، وظلت صامدة ومتحدية مع كل الآلام مع العراق. على كلٍ لا مانع أن أحلم وليعذرني عبد الجبار والقراء إذا قلت أن الإيرانيين كان يمكنهم أن يسيطروا على العراق أيضاً بنفس الأسلوب الذي واجهوا به الشاه. ولكن لم يفعلوا ذلك وسيأتي هذا في وقته كما تتحد الشعوب الأوربية الآن. فإن خميرة الديمقراطية الناشئة في إيران ستثبت أقدامها كما أثبتت الثورة أقدامها بإذن الله تعالى. إن تحدي إيران للديمقراطية والانتخابات الحرة والترشيح لاتجاهين وإن كانا منبثقين من رؤية واحدة لخطوة جديدة. إن ما حدث في الانتخابات الأخيرة في إيران كانت المفاجئة الثانية بعد الثورة للعالم جميعاً، فقد اجتازوا مرحلة الثورة السلمية الناجحة وتقدموا بخطوات ثابتة إلى الديمقراطية. إن هذا الحدث يحمل معاني كثيرة. لقد كانت الصحافة العالمية تراهن على سقوط الديمقراطية، وأنه حتى لو نجح خاتمي لن يُمكَّن. ولكن نجح وتمكن مع كل المعارضات، فلن يتخلى الشعب الإيراني الذي ذاق طعم النجاح وآمن أنه صانع مصيره. نرجو لهم الفلاح إنهم سيكونون طليعة لتعاون إسلامي راسخ يأمنه جيرانه. وهذا رأسمال لا يقدر بأموال وممتلكات، أن يثق بك جارك أن لا تغدر به، وأن تكون في عونه حتى وإن أساء. فهذه علاقة جديدة لا يمكن أن يندس إليها المتلمظون. ونحن نأمل أن تغلب حكمة الحكماء سذاجة بعض الأصوات النشاز.

الظاهرة التركية

سبقت تركيا العالم الإسلامي في الثورة على الإسلام، وهم الذين ألغوا الخلافة غير الراشدة. ولكن كما سبقوا العالم الإسلامي في تحدي الإسلام الذي فقد الرشد، فهم الآن يسبقون العالم الإسلامي في تحدي العلمانية والديمقراطية بالعلمانية والديمقراطية. إن هذا التطور الراسخ دليل بإذنه تعالى على أن وعد الله بأن يتم نوره في طريقه الراسخ إلى التحقق محلياً وعالمياً، حيث لم يعد لدعاة القطيعة والحرب ذلك التأييد. فالمؤيدون يقلون والمعارضون يقوون ويترسخون. وسيتحقق علم الله في الإنسان بأنه سيتجاوز الفساد وسفك الدماء، لأن المشكلات صارت قابلة للحل من غير قرابين بشرية. وإن غداً لناظره قريب، "إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً"، ليس إيماناً بالغيب وإنما هذا الغيب صار دليله من عالم الشهادة، نراه في الآفاق والأنفس.

السلام فيما بيننا

ولنعد إلى مشكلة إسرائيل، هذه الظاهرة التي أدت دورها بكفاءة، حيث شغلت العرب عن واجباتهم الإنسانية ومشكلاتهم الداخلية العميقة التي توارثوها خلال القرون.

من الأمور اللامفكر فيها مثلاً: السلام فيما بيننا، بينما نفكر ونكثر الحديث عن السلام مع إسرائيل الذي ليس له أساس أو قواعد. ولا يخطر في بالنا التفكير بالسلام مع بعضنا. كان مالك بن نبي يقول: حين نتكلم عن القابلية للاستعمار أكثر مما نتكلم عن الاستعمار نكون بدأنا في سلك طريق الحل. لأن الله والرسول وآدم والشيطان اتفقوا جميعاً على أن المشكلة من عند أنفسنا. يقول الله:" أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم". والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي يدين الضحية أكثر من الظالم لأنه لا يمكن أن يظلم إلا بمعونتنا ومساعدتنا، فإن لم نفعل فسيسقط الظالم. والرسول (ص) يقول في حديث طويل: "من وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه". ونحن عندنا استعداد للوم كل أحد ما عدا أنفسنا. وآدم عليه السلام لما أكل من الشجرة هو وزوجه، ولما قال الله لهما: "ألم أنهكما عن تلكما الشجرة قال آدم وزوجه ربنا ظلمنا أنفسنا". ولم يذكروا أن الشيطان أغراهم مع أن الله أخبرنا بذلك، وتحمل آدم وزوجه المسؤولية، ولهذا استخلفا في الأرض. والشيطان أيضا سيقول يوم القيامة للذين اتبعوه: "ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي". وخرج المؤرخ توينبي من عبر التاريخ بأن الحضارات لا تموت شهداء بل انتحاراً ثم تهجم عليها –بعد أن تفقد الروح وتصير جثة هامدة– النسور والعقبان التي تقتات على الجثث. فهذه عبر التاريخ. لم لا

ولكن لماذا لا نفكر بالسلام فيما بيننا؟ ينبغي أن نبحث. إن تاريخ التناحر الذي عشناه يسد علينا الطرق الأخرى. ولقد قمت بتفحص الجواب على هذا السؤال.

لا نستطيع أن نتصور سلاماً فيما بيننا من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع. فلا ملك ولا رئيس ولا أمير ولا صاحب مال ولا صاحب أرض يخسر شيئاً، بل يربح الجميع. لما أقول هذا، لا يمكن للناس أن يتصوروه أول الأمر لأنه عندهم مسلمة أن المشكلة لا تحل إلا بإزالة الآخر أو سلبه ما عنده. إن الأوربيين الآن تركوا إزالة الآخر أو سلبه ما عنده. بل يبقى ما عندهم ويزداد، ويربح الجميع. لا يحدث هذا في مجرة بعيدة، وإنما يحدث مع جيراننا التقليديين الذين بيننا وبينهم صلة من زمن الإسكندر، قبل المسيح، إلى يومنا هذا.

إذا كان في هلاك الأمم عبرة في التاريخ كذلك في نجاح الأمم عبرة، لأن التاريخ يشهد للعاقبة السيئة والعاقبة الحسنة. وكلما عرقلت إسرائيل السلام ينبغي أن نخطو نحن إلى السلام فيما بيننا، وأن نعترف بأخطائنا جميعاً، لا أن ندين طرف على طرف. وأنا لا أوجه حديثي هذا إلى الزعماء السياسيين المشغولين جداً بمشاكلهم الآنية جداً. وإنما أتوجه إلى الإنسان العادي، الرجل العادي والمرأة العادية، فقط لأقول له ولها: هناك حل من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع. أريد أن أضع في فم الإنسان كلمة يستطيع أن ينطق بها من غير أن يشعر أنه مذنب أو خائن أو عميل، لأننا نولد مذنبين ليس من خطيئة آدم كما فسر المسيحيون المشكلة، ولكن مذنبين لأن الثقافة التي نتشربها قبل أن يتيسر لنا الكلام هي ثقافة إزالة الآخر لتوحيد المسلمين. أجزنا الغدر وفرحنا بالغادرين، كأن الغدر يمكن أن يزيل الغدر. إن الخطأ لا يُزال بالخطأ. الخطأ يزال بالصواب.وينبغي أن نتحدث إلى إنساننا كثيراً، ليعرف الذنب الذي يمكن أن يعترف به. نقول له إن كانت الدعوة إلى السلام بين العرب ذنباً من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع فإنه عندي استعداد أن أرتكب هذا الذنب. فأنا أدعو إلى هذا علناً وليس سراً بل جهراً وليس خفية، وإن كان سيعتبر بعضهم هذا ذنباً. إني فقط أدعو وأبين للناس أنه يمكن أن يربح الجميع. ولا يمكن أن يعترض على هذا إلا من ينكر الآخرين –إلا ذاته– ويفضح نفسه. فعلينا أن نتعلم الكلمات والجمل التي يمكن أن نتكلم بها.

لا نريد أن نصنع الديمقراطية الآن. بل نبدأ بالممكن حتى يطمئن الناس إلى أن هناك رأياً وهناك من يؤمنون بهذا الرأي، وهناك من يتكلمون بهذا الرأي، وهناك من يجتمعون على هذا الرأي. هذه كلمات بسيطة مضيئة. علينا أن نكررها ونذكرها ونجعلها مألوفة، لئلا يقول الناس ما سمعنا بهذا. بل ينبغي أن يسمعوا ويتحدثوا به ويألفوه. على الأقل نشعر في أعماق قلوبنا بإمكان السلام والأمان بين المسلمين والمؤمنين. وإلا فكيف يكون سلام وأمان؟ إذا آمنا بذلك فسنفرح بمن يعمل سلاماً وأماناً بين العرب والمسلمين. وسوف لن نفرح بمن يريد أن يوحد العرب والمسلمين بالسيف. ولنتذكر يا عرب كيف أن بلدين عربيين لما تعاونا في سنة 1973 لمدة وجيزة في حرب تشرين تضامن بقية العرب معهما وحتى الذين لم يكن عندهم خبر تعاونوا معهم، ودهش العالم الآخر وفرح العرب وغلا بترولهم وشعروا بعبور حاجز الرعب. ولكن لنتذكر أيضاً أنه لما تنازع بلدان عربيان في حرب الخليج فشل العرب وذهبت ريحهم وخسروا أموالهم وازدادت شقة الخلاف بينهم. حتى بعد مرور نحو عشر سنوات لا نستطيع أن نواجه بعضنا بعضاً ولا يسلم بعضنا على بعض والرسول يقول خيرهما

الذي يبدأ بالسلام. واستعادة الثقة والسلام لا يكون بين عشية وضحاها. لقد صنع العرب وحدة بين مصر وسوريا ولكن فصلت. ولقد مضى على ذلك أربعون عاماً حتى إن الدعوة إلى الوحدة صارت تجلب الامتعاض. كيف يمكن أن يبنى بناء من غير أساس؟ علينا أن نبدأ بالفهم وبعد ذلك بالكلام الذي ينطلق من وعي وقلب سليم. نحن علينا أن نكتشف سبل السلام ونمهد الطريق ليتمكن الناس من سلوكه. إن سبل السلام لم تشق بعد حتى على الخريطة فضلاً عن أن تكون لها واقع من الأرض.

مثالان عن تواطؤات ضمنية

هناك مسلمات غير منطوق بها ولكنها مؤثرة بقوة أكثر من أي معاهدة كتبت ووقع عليها الناس.

التواطؤ الضمني حول الإيمان بالقوة

إن المسلمين تواطؤا ضمنياً من غير إعلان. لما فقدوا الرشد وهو اللاإكراه في الدين وفي السياسة ووقعوا في الغي الذي هو الإكراه في الدين والسياسة فزعوا. ولكن لم يعرفوا كيف يعيدونه وعجزوا عن فهم ذلك فتواطؤا من غير إعلان فيما بينهم أنه من تمكن أن يستعيد الرشد بالقوة والغدر فلا حرج عليه. فهذا لم يصرح به ولكنه فُهم وبُلغ إلى الناس كافة بحيث صار أمراً طبيعياً. وإلى يومنا هذا لم نواجه هذا التواطؤ الضمني بوعي لنتعافى منه. ينبغي أن نعود إلى الرشد. إن الله يقول: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها". لما يقول الله "لا إكراه في الدين" ويقول "قد تبين الرشد من الغي" فهذا يعني أنه لا إكراه في الدين لأن الإكراه هو الغي واللاإكراه هو الرشد. ويؤكد هذا في الجملة الثالثة، فمن يكفر بالطاغوت الذي كيانه كله على الإكراه ويؤمن بالله الذي دينه لا إكراه فيه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

التواطؤ الضمني عن الحق والباطل

ومن التواطؤ الضمني الخاطئ الذي صار مسلماً به ومعترفاً به أيضاً، وإن لم يصرح به أحد، أن الحق والباطل إذا أعطيا فرصاً متكافئة فإن الباطل سينتصر وأن الحق سينهزم. بل ويُظن أن الناس سيختارون الباطل. هذا المفهوم سوء ظن بالله أولاً، وثانياً سوء ظن بالحق وبالإسلام. وفي مثل هذا قال الله: "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية"، ويقول: "ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين". هذا يتعلق بسوء الظن بالله. ومن جانب آخر يعارض القرآن سوء الظن بالحق فيقول أن الحق إذا جاء سيزهق الباطل، لأن الباطل من شأنه الزهوق. "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"، ولم يقل وقل جاء الباطل وزهق الحق إن الحق كان زهوقاً، كما يظن الكثير بالحق. هذا الظن بالحق موجود في أعماقنا. لقد خوفونا من الباطل خوفاً غير طبيعي وغير حقيقي، والله يقول: "وقل جاء الحق ومايبدئ الباطل وما يعيد". ويقول: "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون."

إن هذا الفهم إساءة ظن بالله وبالحق وبالإسلام. كأن الناس إذا أُعطي لهم الخيار سيهجرون الحق والإسلام، وأن الحق لن يجد أعواناً له. وثالثاً هذه إساءة ظن بالإنسان أيضاً، لأن هذا التفكير يظهره على أنه مدفوع إلى الشر أكثر مما هو مدفوع بداعي الخير، بينما الإنسان يرتاح للخير، ولهذا يقول الله: "بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون". إذا انتشر الجهل سيتزين للناس سوء عملهم. لهذا كان واجب البلاغ المبين حتى لا يبقى من لم يصل إليه العلم. والمغضوب عليهم قلة وحتى سبب وجودهم هو كثرة الضالين. لما يُبلَّغ الحق للناس فسينضم أكثر الناس إلى الحق. هذه سنة الله.

السؤال الثالث: ما هي معالم مشروع "سنن تغيير النفس والمجتمع"؟ وهل ولد مشروعكم هذا وترعرع في رحم مشروع "مشكلات حضارة" للمفكر المسلم مالك بن نبي؟

الجواب: ربما الأمر هكذا، ولكني شديد الحرص على إعادة الحياة للكلمات القرآنية، وأن نعيد الحياة للمصطلحات الإسلامية القرآنية. إن كلمة "سنن" كلمة عريقة في قرآنيتها وورودها في أحاديث الرسول. والسنة كما عرفها العلماء هي "أن يفعل في الثاني مثل ما فعل في الأول". هذا التوضيح لمعنى السنة مهم، وهذا معنى "ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً". هذا إشارة إلى ثبات السنن: النار تحرق بشروط والمجتمع يهلَك بشروط. ونتيجة السنة حتمية "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين". "والله لا يخلف الميعاد". هذا الموضوع ينبغي أن يبحث ليعود لهذا المصطلح بريقه وواقعيته. ينبغي أن تبحث السنن المادية والنفسية، الفردية والجماعية. والأمر مشتبه إلى الآن. بعضهم يفهم "السنة" على أنها سنة الرسول، أو المذهب السني، ولا يفهمون أنها القانون والقاعدة والنظام الذي لا يتخلف. وربما يمكن أن نقول: لب العلم هو كشف السنة، وعلى أساسها يكون التسخير، وعلى أساسها يتم استخلاف الإنسان في الأرض. هذا مشروع وبداية ونرجو أن يتكامل ويتواصل. وهذا واجب الشباب العلماء الذين يأتون من بعدنا، وسيتم هذا رغماً عن الجميع مهما أراد المريدون أن يخفتوا أو يطفئوا نور الله، وقانون الله، فإن الله متم نوره ولو كره الكافرون والمشركون وكفى بالله حسيبا.

وكذلك كلمة "التغيير" كلمة عريقة في قرآنيتها، سواء الفاعل الذي اسند إليه أو المفعول الذي وقع عليه، والتغيير إزالة ووضع. وهذا يحمل معنى عميقاً، وهو أن الذي فسد يمكن إصلاحه. هذا معنى التغيير. وهذا الفهم مهم لأن التزكية والتدسية ابتداءاً قد يكونا أسهل من التدسية والتزكية تغييراً. أي التغيير بعد التشكل أصعب. وتغيير ما بالأنفس هو وظيفة البشر وليس وظيفة الله. أما تغيير ما بالأقوام من نتائج تغيير ما بالأنفس. وهو من الله، لأنه إذا غير الأقوام ما بأنفسهم يغير الله ما بالقوم من النعمة أو النقمة. فإذا تعاملنا مع الواقع سنتعلم كيف نقوم بعملية تغيير ما بالأنفس. وفي الواقع إن عبارة "تغيير النفس" ليست هي الصحيحة. تغيير ما بالنفس أصح تعبيراً، لأن النفس وعاء المفاهيم الخيرة أو الشريرة، مفاهيم الخطأ والصواب. وتغيير ما في النفس وظيفة البشر. إن كلمة "النفس" كلمة عريقة بقوة في القرآن. النفس الأمارة والنفس اللوامة والنفس المطمئنة. وعلم النفس الذي بدأ الناس يتعاملون معه يتخوف منه المسلمون كثيراً وخاصة لارتباطه باسم فرويد وغيره ممن لا يرون فيهم إلا الشر. ولكن تغيير ما بالأنفس سنة بشرية لا شرقية ولا غربية، لا عربية ولا أعجمية. وهذا موضوع ينبغي أن يصير علماً ويقيناً لا تردد فيه ولا غموض.

أما كلمة "المجتمع" ربما هي مثل كلمة "الحضارة" عند مالك. فهي ليست بعراقة بقية المصطلحات، ولكن ربما المراد أو المقابل القرآني لكلمة المجتمع هي كلمة "الأمة". وإن كانت هناك كلمات قريبة لكلمة "مجتمع" مثل الجماعة، "يد الله مع الجماعة"...الخ.

مشروع مالك بن نبي مشروع سنني واقعي ويخاطب العقول العلمية الحديثة أكثر. ولكن كلمتي "الحضارة" و"الثقافة" ليستا من المصطلحات القرآنية أو مما أثر عن الرسول أو حتى من المصطلحات الإسلامية. فكلمتا الحضارة والثقافة وإن كانتا كلمتان عربيتان فليس لهما خصوصية إسلامية. وأنا وإن كنت شديد الحرص على سنن الله وآياته في الآفاق والأنفس، إلا أني حريص أيضا على أن يكون ذلك مرتبطاً بالقرآن وكلمات القرآن. وأنا عانيت بعد أن درست مالك بن نبي في اختيار الكلمات التي أحييها من القرآن مقابل مصطلحاته. هذه مسالك عانينا فيها والذين يأتون من بعدنا سيحررون المواضيع والكلمات. والغزالي قال: "من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك، وكان كمن يستدبر الغرب وهو يطلبه. وأما من حرر المعاني أولاً ثم أتبع الألفاظ المعاني فقد اهتدى." ونحن ينبغي أن نحرر المعاني ثم نربطها بكلمات القرآن. هذا هو الهاجس الذي كان يلازمني حين حاولت أن أعطي اهتماماً لتغيير ما بالمسلمين وتغيير ما بأنفسهم. ولصلتي الشديدة بمالك بن نبي الفكرية حاولت أن أقربه من ضمير المسلم بالمصطلحات والمعاني القرآنية. وهذا الحرص الشديد مني على تصحيح العلاقة بين الوقائع والكلمات هو الذي جعلني أهتم بما ورد في سؤالك الرابع.

السؤال الرابع: تشدد كتاباتكم على وجود مصدرين للمعرفة: القرآن وتاريخ العالم، وأن الذي يجهل التاريخ لا يمكن أن تكون معرفته سليمة. ما هو موقع تاريخ العالم من القرآن؟ وكيف يكون تاريخ العالم رديفاً للقرآن؟

الجواب: شكراً يا أخي عبد الجبار. أعود وأقول إنك لامست الأفكار التي تهمني ملامسة شديدة، وربما عرضتها بصورة التساؤل أو شبه الاعتراض على هذا المسلك، إن لم أقل الإنكار. ربما أنت لا تنكر علي هذا الاتجاه الفكري، وأنا سأحمله على أنك تريد مني أن أكون أكثر وضوحاً وأوسع بياناً. نعم ينبغي أن نفعل ذلك وأن نكثر القول وأن نضرب الأمثلة الموضحة. ففي الإنجيل أن عيسى عليه السلام كان يكلم الناس بأمثال ولم يكن يكلمهم بغير أمثال. وفي القرآن: "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون"

نعم يا أخ عبد الجبار. إن من لا يعرف التاريخ ليس فقط معرفته غير سليمة، بل لا يُوثق بعلمه، لأن المعرفة هو التاريخ، هو الخبرات، هو التجارب. بدون تاريخ لا علم ولا عقل، لأن العقل هو ربط الأسباب بالنتائج. والعقل ليس جهازاً للفهم وإنما هو جهاز ربط، وإمكانية تتحول إلى واقع. الإنسان يولد وعنده قدرة تعلم الكتابة وقد يعيش أمياً ولا تتحول قدرته هذه إلى واقع. وكذلك العقل. لهذا لم يرد كلمة "العقل" اسماً في القرآن، وإنما وردت كفعل. لم يقل ليس عندكم عقل،-لأنه عندهم القدرة- وإنما قال: "لا يعقلون" أي لا يربطون الأسباب بالنتائج. التاريخ هو الذي يشهد للقرآن بالصدق، فالتاريخ هو البينة والشاهد على هذا. والله يأمرنا في كتابه أن نتحاكم إلى التاريخ، لأن عواقب التاريخ لا يمكن التلاعب بها. والناس يخطئون حين يخلطون بين ما يكتبه الناس عن فهمهم للوقائع وبين عواقب التصورات. إن التاريخ ليس ما كتبه الناس عن الشيوعية، سواء مؤيدين أو معارضين. إنما التاريخ هو العاقبة التي وصلت إليها الشيوعية عندما انهار الإتحاد السوفييتي. ودراسة العاقبة ليست إدانة لمطلب العدالة في توزيع الثروات. لم يكن هدفهم هو الخطأ ولكن المسلك الذي أدى إلى هذه العاقبة هو المدان. وإلا يمكن أن نقول أن الإسلام فشل أيضاً وتراجع. ولكن الموضوع ليس هكذا. إن المقاربة بين معرفة سنن سلامة وصحة الجسد وبين سنن وسلامة وصحة النفس أو ما بالنفس تساعدنا على الفهم. عندما كان الناس يجهلون أسباب الأمراض كانت الأوبئة تجتاحهم. كذلك الآن الحروب الاستكبارية لاستلاب الناس، سواء كانت حروب عالمية أو محلية، فهي أمراض فكرية مفاهيمية. إن الناس كانوا يقبلون من يحبون وينقلون إليه المرض دون شعور منهم، ويبكون عليه حين يموت. ونحن الآن في المقابل نُعلِّم الناس أفكاراً بكل الحرص ثم بعد ذلك لما ينتج الإقتتال والغدر عن هذا الذي علمناهم وعدم القدرة على إصلاح ذات بينهم نبكي عليهم ونحزن. هذا دليل على خطأ فهمنا للمشكلة الإنسانية. نحن لم نزكها وإنما دسيناها. هذه مواضيع ينبغي أن نتعب فيها كثيراً لنخرج من الأوهام والأحلام. ولقد ضربت مثلاً في بعض ما كتبت من أن العلاقة بين النص والواقع يمكن توضيحها بدراسة شجرة أو عضو حي أو حيوان أو إنسان أو أي عنصر من عناصر المادة. فمهما ألف المؤلفون من العلماء عن هذه المواضيع فإن مؤلفاتهم تظل قاصرة، لأنه إذا أردنا أن نتأكد من صحة فهمنا لما كتبه العلماء علينا أن نرجع إلى الموضوع الذي كتبوا عنه. أي أن الواقع هو المرجع عند الاختلاف. وأنا قلت حتى ولو كان الله وضع كتاباً في هذا الموضوع لكان خلق الله المادي الواقعي أدل على ما خلق من الكتاب الذي وضعه الله جل جلاله. هذا لأن الله لما خلق الخلق لم يستعمل شيئاً إنسانياً فكان خلقه مجرداً عن الإنسان. ولكن الكتاب الذي ينزله يكون بلسان هؤلاء القوم "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه"، والله تعالى لم ينزل كتاباً حتى تعلم الناس الكتابة. والكتابة شأن بشري، يحمل القصور البشري. ولكن الخلق شأن إلهي يحمل المطلقية الإلهية مع التدرج في الخلق ولهذا أمرنا الله تعالى شأنه بالرجوع إلى ما خلق لنعرف صحة حكمه في ذلك لما يقول:

"انظر كيف كان عاقبة المكذبين"

"انظر كيف كان عاقبة المجرمين"

"انظر كيف كان عاقبة المفسدين"

"انظر كيف كان عاقبة الظالمين"

"انظر كيف كان عاقبة المنذرين"

هذا للمخطئين ويقول عن المصيبين: "إن العاقبة للمتقين". لمن عقبى الدار. من تكون له عاقبة الدار. وقد ذكرت كيف أن إقبالاً قال: إن الحكم على صحة حضارة أو ثقافة أن يكون بالنظر إلى نموذج الإنسان الذي تنتجه هذه الحضارة. هذه أمور بديهية ينبغي أن نتأملها. وليس من الصعب تفهمها وهي فطرية في الناس، أن يعرفوا الصلاح والفساد من العواقب والوقائع. لهذا القرآن مليء بالنظر في كل من العواقب النافعة والفاسدة. وهذا هو الاعتبار ولا قيمة للاعتبار إن لم يكن بالتاريخ وعواقب التاريخ. والرسول (ص) يقول: "أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد". هذا قانون تاريخي. إن مختبر فهم صحة السلوك البشري والمفاهيم البشرية هو التاريخ المفتوح لكل الناس. كما أن في المختبرات المادية يمارس الناس التجارب على موادهم سواء كان في الذرة أو الكهرباء أو المركبات الكيماوية أو العضوية، فإن مختبر التاريخ يتعلق بالخلق الآخر قمة الإبداع، الإنسان.

ليس التاريخ رديف القرآن بل هو مرجع القرآن وعمدته في إبراز صدقه. مثلاً يقول الله: "لا إكراه في الدين". قد نخطئ في فهم هذا الحكم. وكم يخطئ المسلمون في فهم هذا الموضوع بشكل مأساوي. كأنهم يظنون إذا صار لا إكراه في الدين سيخسر المسلمون وسيخرجون من الإسلام. هذا الوهم الخرافي يوقعهم في مآسي، ولا يفطنون كيف سقط الاتحاد السوفيتي في هذا العصر تحت سمعنا وبصرنا، لأنه البلد الذي كان يمارس الإكراه في الدين. كيف سقط وكيف كان سقوطه عظيماً. وسيسقط كل الذين يكرهون الناس على الدين ودين الله لا إكراه فيه، والله تعالى يقول: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد".

يذكر القرآن الأحداث ويذكر العواقب، ويؤكد أن هذا قانون سيتكرر لكل من أخطأ. "إن ربك لبالمرصاد"... "وإن عدتم عدنا"..."وهل نجازي إلا الكفور". أليس لنا الحق أن نقول الآن: ألم تر كيف فعل ربك بهتلر وبنابليون وبالاتحاد السوفيتي وبشاه إيران؟ إن الأحداث التي حدثت بعد نزول القرآن أكبر وأكثر. فأين الاتحاد السوفيتي بصواريخه ورؤوسه النووية؟ كان أعظم من فرعون ومن ثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وبالاعتبار بالتاريخ يمكن أن نتنبأ بأنه حتى الولايات المتحدة يمكن أن تتغير وتزول عنها غطرستها وظلمها، فهي لا تعدل بين الناس وعندها أهل الشرف الذين هم فوق القانون، وآخرون ضعفاء تطاردهم. إذا كان الله يقول ويل للمطففين، فكيف بالذي يكيل بمكيالين وكيف بالذي لا مكيال عنده ولا مقياس وإنما يعلو في الأرض ويجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم.

إن حق النقض، حق الفيتو، هو الشرك الأكبر والظلم الأعظم الذي لا يطالب أحد بزواله وإنما يتمنون أن يكون لهم مثل ذلك، كما قال الذين لا يعلمون لما خرج عليهم قارون في زينته: ياليت لنا مثل ما أوتي قارون. والقصة معروفة للذين يقرؤون القرآن. والقرآن يذكر الذين هلكوا من الأمم. وفي تلك الأيام كانوا يهلكون هلاك أفكار لا هلاك أجساد. إن أحفاد المصريين لا يزالون يعيشون في مصر ولكن ضمن منظومة أخرى من المفاهيم. والقرآن يستثني قوم يونس، الذين غيروا واعتبروا. "فلولا كانت قرية آمنة فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين". يمكن أن نقول إن التاريخ هو الكتاب الذي يخاطب البشر مباشرة بدون وسيط. وقد كان الناس ينتبهون إلى شيء من هذا حين قالوا:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل. يقول إقبال في كتابه "تجديد التفكير الديني" في الفصل الخامس بعنوان روح الثقافة الإسلامية: "ولهذا كان من بين ما يحكم به على قيمة دعوة النبي ورسالته، البحث في نوع الرجولة التي ابتدعها، والفحص عن العالم الثقافي الذي انبعث عن روح دعوته... ونلمح بصيصاً من الروح التي عبرت عنها هذه الأفكار ... ينبغي أن نفهم أولاً القيمة الثقافية لإحدى مفاهيم الفكر الإسلامية العظيمة وأعني بها فكرة ختام النبوة... والإنسان محكوم أساسياً بالعاطفة والغريزة، أما العقل الاستدلالي، وهو وحده الذي يجعل الإنسان سيداً لبيئته، فأمر كسبي. فإذا حصلناه مرة وجب أن نثبت دعائمه ونشد من أزره، وذلك بكبت أساليب المعرفة التي لا تعتمد عليه. فإذا نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية وجدنا أن نبي الإسلام يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث، فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته. وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها. فللحياة في نظره مصادر أخرى للمعرفة تلائم اتجاهها. ومولد الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي. إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه. وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو.

إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة. والقرآن يصرح بوجود مصدرين آخرين هما الطبيعة والتاريخ. وروح الإسلام على أحسن صورها تتجلى في فتح طريق البحث في هذين المصدرين. فهو يرى آيات على الحق في الشمس والقمر وامتداد الظل واختلاف الليل والنهار واختلاف الألسنة والألوان وتداول الأيام بين الناس، فعلى المسلم أن لا يمر بها أصم أعمى". "ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً"

أقول يا أخي الكريم عبد الجبار إننا في إعواز شديد. وفي المقابل يقول الغزالي: وظيفة العقل أن يهديك إلى الله والرسول ثم يعزل نفسه. هكذا كانوا يفهمون الأمر. ولكن إذا عزل العقل نفسه فهناك الأهواء والظنون جاهزة لتلقف من عزل نفسه. فكيف نفعل بمن ضل سعيه وهو يحسب أن يحسن صنعاً؟ وكيف نصنع وماذا نصنع بمن زين له سوء عمله فرآه حسناً؟ إن التاريخ لا يمل. إنه أستاذ صبور عنده استعداد أن يثبت على قوانينه وسننه ولا يمل حتى نمل نحن ونغير فهمنا. وأنا في ارتياح شديد بأن الله سيري مَن بعدنا أهمية هذه المواضيع وسيفهمونها بأشكال لا يمكن أن تخطر لنا على بال.

السؤال الخامس: اشتهر جودت سعيد بدعوته لنبذ العنف بل شدد على ضرورة كسر السيف والتخلص من السلاح وشبَّه شراء الأسلحة بشراء الأصنام، وأكد على ضرورة تبني مذهب ابن آدم الأول، كما وسم بذلك أول عمل عرف له قبل ثلث قرن. هل يدعو جودت سعيد إلى تعطيل الجهاد كفريضة ولو توفرت كافة شرائطها؟ وهل يطلب من المسلمين التمرد على قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة"؟ وهل يريد منا أن نتفرج على ترسانة الكيان الصهيوني الهائلة؟ وهل ينبغي أن نوقف حركات المقاومة ونخنع لنزعته العدوانية

الجواب: أظن أن أخي عبد الجبار يريد أن يستفزني في هذا الموضوع. لا أزال أحمل سؤاله الطويل –أطول سؤال من بين أسئلته ما يتعلق بالعنف– أنه يريد مني أن أكون أكثر وضوحا وبياناً في هذا الموضوع، وله الحق في ذلك ونتمنى أن نبلغ ببياننا إلى وضع أفضل. قبل أكثر من ثلث قرن لما كتبت ابن آدم كان همي الإعلان عن هذه الفكرة، وأنني أدعو إليها. ولم يكن لي طمع في أن أقنع الناس بها. لهذا وضعت في ذلك الكتاب عنواناً، "للإعلان أكثر منه للإقناع". كتب لي كثيرون أن أحاول إقناع الناس وأن أكتب للإقناع وليس للإعلان فقط. وكثرت الشبهات حول هذه الفكرة، وهذا دليل على صعوبة الموضوع. وعندما نفهم الموضوع سنتحول إلى التعجب، كيف كنا لا نفهم هذه الفكرة، كما كان الذين لا قدرة لهم على فهم أن الشمس لا تدور حولنا وإنما نحن ندور حولها وأمامها. ولا مانع أن أعيد ترجمة بيت الشعر الفارسي الذي ذكره الخاتمي في "كتابه بيم موج": "يا طير يا خفيف الجناح يا أيها المتنعم بالنسيم الساحر أنى لك أن تدرك ما نحن فيه، إذ نحن في ظلمة الليل وغمرات الموج العاتي بين الخوف والرجاء." نحن في هذا الظلام وربما يشعر الخاتمي أنه يعيش هذه الظلمات. كان الله في عونه ونتمنى له التوفيق على هذه المهمة الكبيرة التي يقوم بها. لفهم هذا الموضوع ينبغي أن نفهم دور الأفكار المسيطرة وكيف تحول دون الفهم وتغلق على الناس سمعهم وبصرهم فلا تغني الأسماع والأبصار والعقول. والقرآن شديد الاهتمام بهذه الحالة. ويذكر الصم والبكم والعمي "صم بكم عمي فهم لا يرجعون". أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ولا في الملة الآخرة. الكتاب في حالة ضياع. مفهوم العلم لا يجدي شيئاً. أوليست اليهود والنصارى بيدهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟

إن وضع العالم الإسلامي المأساوي هو الذي يسوغ لنا أن نفكر في مشكلة المسلمين. لماذا هم أخسر الناس أعمالاً من دون الناس أجمعين؟ لما بدأت أدعو إلى هذا كان سبب انطلاقي أنني وثقت بإقناع العقل الإنساني أكثر من قهره. ما لم نعترف أن الإنسان يعطي على الإقناع أكثر مما يعطي على

التخويف والإكراه لا نكون بدأنا في فهم الإنسان ولا الله تعالى. ينبغي أن نفهم ثلاثة أشياء: 1-ظننا بالله، 2-التعرف على خلقه وسننه، 3-قدرة الجهاز العصبي على التسخير.

أولا: نحن لم نعرف الله بعد. مايزال الله عندنا كما قال تعالى: "ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين"، وقال: "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية". إذن فهمنا لله حتماً ليس فهماً صحيحاً. ولا مانع أن أذكر هنا المفكر العملاق، علي شريعتي. هذا الإنسان كان متخصصاً في دراسة علم اجتماع ومقارنة الأديان. حين قرأت كتابه "الإنسان والإسلام"، شعرت وكأن علي شريعتي يلعب الجمباز بين قوم معاقين أو مكرسحين. هذا الرجل مبصر يسمع، يفهم، ويعي. ويشعل كذلك في قلب من يقرؤه إيمانه المتأجج. فهو يقول: إن كل مجتمع يصنع إلهه على قدر وعي هذا المجتمع. هذه حقيقة واقعية. فإذا كان علينا أن نفهم الله ونعرفه، فإن الله لا يمكن معرفته إلا من خلال خلقه. إذن، الشيء الثاني الذي ينبغي أن نعرفه هو هذا الكون الذي خلقه الله على سنن ثابتة ولكنها متطورة أيضاً. فالله يخلق أشياء جديدة ويزيد في الخلق. ونهاية مخلوقاته هو الخلق الآخر، الإنسان. وهذا ما يأتي بنا إلى الشيء الثالث. إن الجهاز العصبي لهذا الإنسان القادر على التأمل وكشف السنن قادر على التسخير. فهذه الأمور الثلاثة متلازمة: الكون كله يدل على الله، به نعرف الله، نكشف كيف خلق الإبل والجبال والأمم. والإنسان له سلطان على هذا الكون، لأن هذا الكون يخضع للسنن، والإنسان قادر على فهم السنن والتسخير."كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين". كان الناس أمة واحدة ولا يزالون. كانوا أمة واحدة في فهمهم، يعبدون الطاغوت، يعبدون من يملك القوة. كانت القوة هي الحق. هكذا سار التاريخ ولا يزال: أنا قوي أنا ربكم الأعلى. هذه هي الأمة الواحدة في كل مكان في العالم حتى أمريكا، الطاغوت الأكبر تقول: أنا ربكم الأعلى. مادام الحق للقوة فهذه شريعة الغاب. أمة واحدة هي إشارة لما كان الناس عليه من عبادة للقوة ولمن يملك القوة. فبعث الله النبيين حتى يعزلوا القوة ويجتنبوا طاعته والتسليم له. فهنا حصل انشقاق في تاريخ الإنسانية. فبما أن للإنسان جهاز عصبي قابل للفهم والتسخير، لا يجوز أن يتسخر لبشر مثله. وهذا ما جاء به الأنبياء. بحثت هذا الموضوع ولا أزال أبحثه. ففي العام الماضي صدر لي كتاب بعنوان: "كن كابن آدم"، وإن شاء الله سأكتب كتاباً آخر بعنوان: "اكسر قوسك". وأنا أقول إن شراء الأسلحة مثل شراء الأصنام لأصدم المسلم ولأصدم الإنسان عامة.

أريد أن أقول لهم: أنتم يمكن أن تتفاهموا، ولا يمكن أن تعيشوا شريعة الغاب. ينبغي أن تضعوا مفاهيم وقواعد وقوانين وسنن لتتعاملوا مع بعضكم. إن الإنسان لا يمكن أن يكون إنساناً إلا إذا صار مثل ابن آدم.

كيف يمكن أن نفهم الموضوع؟ دعوة الرسول (ص) ستساعد المسلمين والناس على فهم موضوع ابن آدم، وبدونها لا يمكن الاقتراب من هذا الموضوع في ظروفنا الحالية. إن الرسول (ص) ممثل الأنبياء والشاهد لهم وعليهم. "إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً". الأنبياء جاءوا بدين واحد وهو التوحيد أما العبادات فتختلف بينهم. والمعاملات تتطور حسب الزمان على محور ثابت هو العدل. بل أن التوحيد هو أن لا يخل أحد بالعدل. فالظلم هو الشرك العظيم والشرك هو الظلم العظيم.

إقامة العدل بين الناس هو التوحيد، أي كلمة السواء. "تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ...أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً". كلمة السواء هي العدل، أي أعطيك من الحق مثل ما آخذ لنفسي وأحرّم عليك ما أحرّمه على نفسي. ومن سواك بنفسه ما ظلمك. "ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه". وإذا رفض الآخر قبول العدل فأنا الذي سأضع القانون وألتزمه من طرف واحد، ولا أنتظر الآخر. وإذا كان الآخر هو الذي يضع القانون الذي يحكمني فأنا أيضا أضع القانون والسنة وألتزمها من طرف واحد. هذا ما علمنا إياه الرسول (ص) وهذا أعظم شيء نزل من السماء أو نبت من الأرض.

لا يمكن أن تكون مسلماً إلا إذا كنت مثل ابن آدم. إن الرسول كان مثل ابن آدم. دعا إلى الله فمنهم من آمن به ومنهم من كفر. وبدأ الذين كفروا يعذبون الذين آمنوا ويفتنونهم عن دينهم ويكرهونهم على الكفر، والرسول يقول: صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة. والقرآن يقول: "كفوا أيديكم وأقيموا

الصلاة". وعلمهم في أول سورة وجوب معصية الطاغوت الذي يريد أن يفرض رأيه بالقوة. قال الله: "أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى... لا تطعه واسجد..." وقال: "إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات... وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد." وهو (ص) لم يدافع عن نفسه. فمن هنا ترى كيف بدأ العمل الإسلامي من الصفر، بالدعوة والصبر على الأذى. يقص ذلك في القرآن على لسان الأنبياء جميعاً: "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب.

قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى

قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين.

قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا **ولنصبرن على ما آذيتمونا** وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد".

الحوار هنا ليس على لسان رسول معين وإنما على لسان الرسل كلهم، وعلى لسان الأقوام كلهم، وأحياناً يتكلم نبي معين نفس الكلام: الدعوة وعندها مقابلة الدعوة بالأذية، والإخراج من الديار والإكراه على العودة إلى ملتهم.

لا بد من تحليل هذه الحالة الدائمة الثابتة. كيف حل الأنبياء المشكلة؟ حلوها بكلمة السواء. نحن ندعو وأنتم تدعون ولا نلجأ إلى الإكراه والأذية والإخراج من الديار. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. لا إكراه في الدين. الدين هو الاعتقاد والرأي، لا إكراه فيه وإنما يكون بالاقتناع. فلنتنافس إذن في الإقناع، ولن نلجأ إلى العنف والإكراه، ولو لجأتم أنتم. ولنصبرن على أذيتكم حتى يقتنع الناس بنا أو بكم.

بهذا يكون الأنبياء والأديان وضعوا قانوناً عاماً: أنه في مجال الأفكار لا بد من تحييد العنف. مفهوم "لا إكراه في الدين" نفى العنف والإكراه في الرأي، وفي الدين، وفي السياسة. بل يكون العمل بالإقناع والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار والجدال بالتي هي أحسن حتى يتغير المجتمع. وهكذا قدم محمد (ص) نموذج الأمة الراشدة التي لا تؤاخذ الناس على أديانهم وأفكارهم ما لم يبدؤوا بالأذية والإكراه. ولو بُدؤوا بالأذية والإكراه لا يقابلون الأذية والإكراه إلا بالصبر حتى يحولوا المجتمع إلى الرشد. فإذا تحول المجتمع إلى الرشد فإن هذا المجتمع يحمي أفكار الناس وعقائدهم من العدوان عليها. ولهؤلاء الناس حق مثل الذي للمؤمنين من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. وهنا ينبغي أن نذكر أن المسلمين، إلا من رحم ربك، لا يتسع صدرهم لإعطاء الآخرين حق الدعوة إلى قناعاتهم مثل ما يعطون لأنفسهم. وهذا يظهر عدم ثقة بالأفكار والدين الذي يدعون إليه، وينبغي أن يعطوا للآخرين مثل الحق الذي يعطونه لأنفسهم ويحرّموا على الآخرين ما يحرّمونه على أنفسهم. وهذا ما سيؤول إليه الأمر رغم الجميع. وقانون أن الزبد يذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض هو الذي سيبقى.

وكذلك إذا بدأ المجتمع يَفسد فليس للمسلم إلا الدعوة والتوجيه. فإذا سلم له المجتمع وتقبله، عليه أن يحمي حق الجميع في الإقناع. ومن لم يقبل هذا وأراد أن يفرض رأيه بالقوة من غير أن يقنع الناس يكون رجع إلى شريعة الغاب وتأليه القوة. فموقف الأنبياء جميعاً هو موقف ابن آدم، "لنصبرن على ما

آذيتمونا". وبهذا وضعوا قاعدة الديمقراطية الصحيحة. وعيب الديمقراطيات الحديثة أنهم يجيزون محاربة وقتل واغتيال المستبدين والمحتلين الأعداء من غير أن يحولوا المجتمع بدون عنف. فهذا نقص في الديمقراطية الحالية.

والمسلمون قلدوا هذه الديمقراطيات وحقوق الإنسان. إن "حقوق الإنسان" الذي جاء به الأنبياء لم تكن حقوقاً وإنما واجبات. أي أن تصنع المجتمع وتحميه بالإقناع وليس بالإكراه. والذي يلجأ إلى الإكراه أو الذي يرد بالإكراه فهما على شريعة الغاب. وبلغة الأنبياء القاتل والمقتول في النار، لأنهم جميعاً يؤلهون القوة. وهذا من أشد العقبات التي تقف أمام فهم هذا الموضوع. إن الأنبياء لا يجيزون الدفاع عن النفس. إذا آذاك ممثل المجتمع لأجل الفكرة التي تحملها لا تدافع عن نفسك، وإنما تدعو إلى صنع أمة ومجتمع لا يؤذى فيه الناس من أجل أفكارهم. فلهذا قال بعض الأنبياء جواباً على قول الأقوام:

"قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال: أولو كنا كارهين، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً".

هنا يمكن أن نقول: كلمة "الملة" كلمة قرآنية. فهي تشير إلى نموذج الثقافة ومفاهيمها التي على أساسها بني المجتمع. لهذا قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في **ملتنا**. قال في الجواب: قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في **ملتكم** بعد إذ نجانا الله منها. إذن ملة الأنبياء مختلفة كلياً عن ملل العالم التي نعيش فيها. فهذا الذي جعلنا نقول في قوله تعالى: كان الناس أمة واحدة. وأنا أقول أنهم ما يزالون أمة واحدة أو ملة واحدة، لأنهم يؤمنون بتغيير عقائد الناس وأفكارهم بالقوة. فبعث الله النبيين بحماية عقائد الناس وأفكارهم. ومن فعل هذا يمكنه أن يدعو الناس إلى كلمة السواء، أنه لا إكراه في الدين، وأن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً. وأن نساعد الناس والعباد في إخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

العالم الإسلامي رهين القوة بكل مجتمعاته. ربما بدؤوا الآن يتلمسون الطريق بغموض شديد. ولا بد أن نسارع في دعوة الناس إلى رفض العنف في نشر الأفكار ورفض الساسة الذين يأتون بالعنف. كيف نرفضهم؟ نرفضهم لا بقتلهم واغتيالهم، وإنما بعدم طاعتهم في معصية الله وبعدم قبولنا الرجوع إلى ملة شريعة الغاب. والناس يظنون أنهم سيُقتلون جميعاً إن رفضوا طاعة الساسة في قتل المسلمين. هذا وهمٌ، فكلما قنع الناس بهذا الأسلوب في التغيير صعب عليهم أن يقتلوا فرداً واحداً فضلاً عن أن يقتلوا أمة. فهذا الطريق السهل، الرحيم للجميع، الهين القليل النفقات الكثير البركات، نغفل عنه ولا ندعو إليه ولا نوعي الناس به. إن هذا كتمان كبير لآيات الله البينات، فإذا دخل إلى وعي الناس هذا الأسلوب فيمكن أن يشارك فيه الأطفال والنساء وكبار السن، ولسنا في حاجة إلى سالمين ومسلحين، ولا إلى أموال وأسلحة. وإنما نقول نحن نرفض هذا ونعلن هذا، فاقتلونا إن شئتم. فهذا ما أعلنه أبو الأنبياء نوح عليه السلام وأمر الله رسوله محمداً (ص) أن يتلو هذا النبأ على قومه. قال الله: "واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون".

يا سيدي ويا عزيزي عبد الجبار، يا من يرأس مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، أنا لا أبطل الجهاد. ولكن أجعل جهاد رسول الله (ص) غير جهاد الخوارج. بعد عهد الراشدين ومن عهد أمية دخل المسلمون كلهم في مذهب الخوارج. ويمكن أن يكون هذا مفهوماً بسهولة إذا عرفنا أن الحكم الذي يأتي بالإكراه لا يكون حكماً شرعياً ولا راشداً، بل حكم غي وبغي. وحين يكون عندك مجتمع راشد وخرجت عليه طائفة، فهذا الذي قال الله عنه: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين".

هذا إذا تقابل من جاء بإقناع الناس ومن يريد أن يفرض نفسه على الناس، لأنه في هذه الحالة يوجد عندنا طرفان: باغ وغير باغ. عندها ينبغي أن يُقاتل الباغي. ولكن في حال كان الطرفان باغيان، أي كل منهما يريد فرض نفسه بالقوة، عندها يختلف الحكم. فإذا خرج على حكم البغي بغي آخر فيكون هذا قتال الجاهلية والراية العمياء. وفي هذا الوضع وفي مثل هذه الحالة أمر الرسول (ص) باجتناب الفرق كلها. فالأحاديث جاءت بالفرار من الفتن

في مثل هذه الحالة وأمرت بكسر السيف والتزام الإنسان بيته حتى إلى درجة إذا دخل عليه يقابله بقول ابن آدم، "لئن بسطت يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين." وإن أراد أن يقتله وخاف من شعاع السيف فيلقي بثوبه على وجهه كما جاء في الحديث.

لا أشعر بتناقض ولا أشعر أني ألغيت الجهاد. بل أشعر أني منسجم تمام الانسجام مع أحاديث الرسول وسلوك الأنبياء جميعاً، ولا أشعر أن الرسول كان متناقضاً حين قال (ص): "إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه ومنبله والرامي به". وكذلك لا أشعر أن هذا يناقض قوله في حديث آخر: "اكسر قوسك واقطع وتره واضرب سيفك بالحجارة". "ومن كان له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له إبل فليلحق بها. ومن كانت له أرض فليلحق بها". حتى لما سألوه: ومن لم يكن له شيء من ذلك، قال: "فليلزم بيته وليكن كابن آدم". لم يدرس المسلمون مشكلة الخوارج إلى الآن. الخوارج هم الذين يريدون أن يصنعوا الدين بالإكراه والمجتمع بالإكراه ويقتلوا الناس لدينهم. لم يبحث موضوع الخوارج، لأن الأمور مازالت متداخلة. وقد نُقل عن علي رضي الله عنه أنه قال: "لا تقاتلوا الخوارج بعدي". فهو قال هذا ليس لأن الخروج صار مشروعاً وإنما لأن الناس كلهم صاروا خوارج. وهذا ما حدث فعلاً وإلى الآن لم يصر الموضوع واضحاً. فرغم كل الفلسفات والتحليلات التي اطّلعت عليها في شؤون شرعية الحرب والدولة والأمة، لم أجد أوضح وأقرب للفهم وأسهل للحل مما جاء به الأنبياء حسب ما حاولت أن أشرح في هذا الحوار. فياليتني أتمكن من عرض الموضوع بوضوح، وأنا مؤمن من أنه سيأتي منّظرون ومفكرون في المستقبل سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين يشرحون هذا ويوضحونه للناس حتى لا يبقى الناس في حيرة ويأس في كيفية الخروج من شريعة الغاب. فقد سن الله للأنبياء أحسن السنن كما قال تعالى: "ولا يأتونك بمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً". وإني أشعر براحة عظيمة وأستطيع أن أواجه العالم بأجمعه إلى ما دعا إليه الأنبياء ألا وهي كلمة السواء وكلمة العدل وكلمة التقوى. قال تعالى عن المؤمنين أنه ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها. ونحن ندعو العالم وفلاسفة العالم وجميع دعاة حقوق الإنسان أن نتعاون على إلغاء حق الفيتو الذي هو الفساد الأكبر في العالم جميعاً، ميراث الرومان وليس ميراث الحداثة. إن حق الفيتو عقبة أمام العالم وهو الذي يوقف نموه. والطواغيت الصغار محمية بالطاغوت الأكبر. فهؤلاء الدعاة لحقوق الإنسان هم الذين يسكتون عن الفساد الأكبر والانتهاك الأكبر لحقوق الإنسان. كيف لا يخجلون من الدعوة إلى حقوق الإنسان ويزعمون الديمقراطية. إن الفيتو الذي يقر به العالم أجمع هو ضد الديمقراطية وضد حقوق الإنسان وضد الإنسانية، فهو يحبط سعي العالم ويجعله خاسراً.

فمدعيّ الديمقراطية وحقوق الإنسان يبحثون عن القشة في أعين الناس. أما الخشبة التي في عيونهم يهملونها. ولكن هل نظل نحن أيضاً ساكتين على هذا النفاق السياسي كأنه مسلمة من مسلمات العالم. نعم كان ذلك كذلك ولكن ينبغي أن يلغى هذا الآن ويطرد وينفى من الوجود.

يا سيدي، يا عزيزي عبد الجبار، أنا لا أتمرد على الله وعلى كتابه. ولكننا ننفق الأموال الطائلة على أسلحة يعرف الذي يبيعنا كيف ومتى يدمرها إذا صارت خطراً على مصالحه. حين نسمي ونفهم هذا العمل على أنه إعداد قوة لدحر العدو واستجابة لقول الله "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" نكون قد سخرنا من أمر الله واستخففنا بمعنى الإعداد. ونكون على رأس ذلك كله أعلنا عن جهلنا بمجريات الأمور. لقد طُرد الأمريكان والمارينز من لبنان حين لم يكن للبنان جيش ولا حكومة. بل إن الشعب كان يقتل بعضه بعضاً ومع ذلك طُردت أمريكا وفرنسا وانسحبت إسرائيل من حصار بيروت. هذا ما استطاع الشعب اللبناني الطائفي الممزق أن يفعله. وكذلك استطاع الصومال، البلد الجائع العريان، أن يطرد أمريكا والأمم المتحدة بدون جيش نظامي وبدون أسلحة مما تسلح به الجيوش. ولكن المشكلة لم تكن مشكلة شعب ولم تكن مشكلة قادة ولا سياسيين وإنما كانت مشكلة القادة الفكريين. تحررت اليابان بدون حرب تحريرية، بدون أن يقتلوا الأمريكان، وبدون أن يقتتلوا هم في ما بينهم. لقد تغير العالم. إن القوة لم تعد تقوم بدور إلا دور وهم. ولكن العراق، الذي هو أعظم بكثير من لبنان ومن الصومال، يُفتش بيتاً بيتاً، ليس لغرض أمن حقيقي وإنما للإذلال. وحدث هذا لأن للعراق حكومة وجيش نظامي وأسلحة شبه متطورة. خرافة في خرافة. هذا نظام فات أوانه وأسلوبه وقد لا نتمكن من فهم هذا، ولكن ربما نفهمه حين نتذكر أن العرب قالوا أثناء حرب الخليج الثانية، اتركوا إسرائيل وانسحاب إسرائيل وحاربوا العراق. هل هذه مشكلة سلاح أم مشكلة أفكار؟ نحن نتجاهل هذه الأمور ونقول عن إسرائيل أنها تملك ترسانة أسلحة تدميرية ونحن نطلب تدمير أسلحة العراق، لأنها أخطر علينا من أسلحة إسرائيل.

يا طير يا خفيف الجناح، ما هذا الظلام الذي يمنعنا من بحث هذه القضايا؟ هل هي خارجة عن القضايا الإسلامية أم هي في صميمها؟ ولم لا نبحثها بجدية وتعمق؟ إن بعض المسلمات تحول بيننا وبين بحث هذه القضايا. ولكن ما أبهظ الثمن الذي ندفعه والزمن الذي نضيعه.

تسألني فيما إذا كنت أدعو إلى تعطيل الجهاد كفريضة ولو توفرت كافة شرائطها وفيما إذا كنت أطلب من المسلمين التمرد على قوله تعالى: "وأعدوا لهم من استطعتم من قوة".

الحمد لله، بدأ المسلمون يعون أن للجهاد شروطا وإن كانوا لا يزالون في نزاع في تحديد هذه الشرائط. لما يقول الله تعالى: "لا إكراه في الدين" فقد ضيق حدود الجهاد تضييقا شديداً. لقد وصل كثير من الناس إلى "لا إكراه في الدين"، ولم يصل المسلمون إليها بعد. إن دين الإنسان الآخر ليس هو سبب الجهاد وإنما ممارسة الإكراه في الدين. ولذلك لو كان هناك من وفر شروط الجهاد فإن المسلمين ربما كانوا هم أولى الناس بالجهاد ضدهم، لأنهم هم الذين يمارسون الإكراه في الدين وهم الذين تحكمهم الطواغيت بالإكراه. ولكن إلى الآن لا يوجد من يسعى لرفع الإكراه عن الناس وإنما ليمارس الإكراه ضدهم. ليس أمر الدين بقوة العضلات والأسلحة والتدمير وإنما هو بقوة الفكر والرشد ومساعدة الناس في رفع الظلم والإكراه عنهم.

أخي الكريم عبد الجبار، تحتج علي بآية "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة"، وتعتبرني متمرداً على الله وعلى قوله "وأعدوا لهم...". إن الله ذكر في هذه الآية مثالاً للقوة المادية ومن رباط الخيل. فإذا قلنا الآن أن إعداد رباط الخيل للجهاد فات أوانه وبطل في العالم أن يكون قوة هل أكون متمرداً على الله وعلى كتاب الله ؟ أليس تعلق المسلمين بالقوة المادية هو ما سد عليهم منافذ الفكر، مع أن الله لما يقول لا إكراه في الدين فقد ألغى القوة المادية وحيّدها وعزلها في إقناع الناس بالدين؟ وهل علي أن أذكرك بالعدد الرابع من مجلة قضايا إسلامية لعام 1997 حين نشرتم ندوة حول أثر الزمان والمكان في الاجتهاد، ووردت فيها أمثلة من علماءٍ كبار في شأن شهادة المرأة وأشياء جديدة في أحكام العدة، فهل تمرد هؤلاء على الله وكتابه. وهل إذا ألغينا الرق وكل الأحكام المتعلقة به نكون قد ألغينا أحكاماً وردت في كتاب الله؟ إن الأمور السياسية في العالم الإسلامي هي التي ينبغي أن يجدد فيها البحث والدرس، وينبغي كشف ملاك أو هدف الإمامة والسياسة في المجتمعات. ورد في سؤالكم الحادي عشر أن محمد أركون يسخر من الذين يستشهدون بالقرآن حول حكم ما قائلاً: إن هذا العمل يثير كل المشاكل للعبور من العصر الاسطوري إلى العصر العلمي. وسألتني كيف أقوّم هذه الدعوة؟ كلام أركون لم ينشأ من فراغ. إنه متعلق بالحالة التي يكثر القرآن من وصفها في كيف أن الناس يمكن أن يكونوا في حالة لا يستفيدون من سمعهم وبصرهم وأنهم كالأنعام، ويقول الله عنهم "وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً". ويقول الله "هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً". يرفع المسلمون الآن لافتات يكتبون عليها الديمقراطية كفر بينما هم يعيشون تحت أمر الطواغيت ويريدون أن يكونوا هم طواغيت أيضاً ويفرضون على الناس الأفكار والدين بالقوة.

نعم إن كلام أركون لا يأتي من فراغ. نحن لم نهضم بعد ما حدث في العالم من تغير في مفهوم عبادة الطاغوت. فالعالم الغربي كفر بالطاغوت كما يقول إقبال ولكن لم يؤمن بعد بالله. ومعنى هذا أنهم تخلصوا في داخل بلدانهم من الطواغيت وكفروا بها، ولكن بقي عليهم أن يساعدوا الناس على التخلص من الطواغيت. إلا أنهم لا يريدون ذلك، بل يخافون أن يتمكن الآخرون في التخلص من الطواغيت.

يا أخي عبد الجبار، إن الله لم يسلط هؤلاء علينا عبثاً. إن الغباء الشديد الذي نعيشه مدعاة للسخرية. بل إن العالم الآخر لا يبحث معنا الأمور على أساس متحضر وإنما على أساس الأساطير. أليس الذي يشتري سلعة فات أوانها يعيش حالة الاسطورة؟ أليس الذي لا يقدر قيمة إقناع الإنسان وتعليمه ما حدث في العالم يعيش في عصر الأسطورة؟ يقول الله صم بكم عمي عن الذين لا قدرة لهم على فهم أنهم يعيشون في عالم متغير. فشريعة الله هي العدل وليست الأحكام الجزئية، لأنه يمكن للبشر أن يقرروا ما هو العدل في كل عصر. إن أركون له كتاب بعنوان: "الفكر الإسلامي قراءة علمية". وكتب هاشم صالح مقدمة للكتاب بعنوان: "بين مفهوم الأرثوذكسية والعقلية الدوغمائية". وفيها يفكك العقلية الدوغمائية. هذه الكلمات مصطلحات لعلوم جديدة تبحث الأسباب التي تجعل الإنسان غير قابل للفهم والإدراك.

إن العقلية الأرثوذكسية والعقلية الدوغمائية هما العقلية الآبائية التي تؤمن بالآباء وتلغي الواقع والتاريخ. تعريف الدوغمائية هي حالة الإنسان الذي تفرض عليه الظروف الموضوعية أن يغير موقفه من قضية ما ويعجز عن ذلك. ونحن العالم الإسلامي عاجزين عن تغيير موقفنا وفق الظروف المتغيرة. وهذا الذي جعل محمد إقبال يقول إن الإسلام وإن نشأ في عصر ما قبل العلم فإنه بشر بعصر العلم. ويقول مالك بن نبي: إن إنساناً يجهل إضافات القرن العشرين للمعرفة الإنسانية لا يمكن أن يدخل بين الناس إلا ويشنع بنفسه.

نعم يا أخي، العالم الإسلامي عالم مريض بكل معنى المرض. لكن لا يعني ذلك أنه غير قابل للشفاء. إن العقلية الأسطورية هي التي تقتل الناس في الجزائر والأفغان. وعلى ذكر الأفغان لا مانع من أن أذكر من أن السلطان عبد الحميد قال للأفغاني لماذا لا تذهب إلى اليابان وتبشر بالإسلام هناك؟ فقال له الأفغاني: وما جوابي إن قالوا لي قومك أحوج إلى التبشير به منا؟ إن اليابانيين هم الذين استطاعوا أن يتكيفوا مع العالم الجديد، بينما نحن إلى الآن نشتري من الغرب أسلحته التي فات أوانها بما فيها القنبلة النووية. ولكن كيف ينظر إلينا من يبيعنا السلاح؟ إنه ينظر إلينا مثل الذي يبيع لنا الخرز الأزرق لنعلقه في رقاب أبنائنا حتى ندفع عنهم الإصابة بالعين.

يا سيدي عبد الجبار، يا من يتمتع بالنسيم، هل تعلم ماذا قال نكسون لخروتشوف حين قال الثاني: أحفادكم سيكونون شيوعيين. أجابه: ربما، ولكن سيكون ذلك بالإقناع وليس بفرضها بالقوة.

إن أمريكا مفتوحة أمامنا وأمام العقل. ولكن نحن نظن أنه لا يمكن فتح أمريكا إلا بالسلاح. كيف نحرر المسلم العاجز فكرياً والذي لا يعطي قيمة للفكر؟ كيف سنُدخل المسلم إلى عالم الفكر؟ ليس عندنا من يستطيع أن يتكلم بالمنطق والعلم مع العالم. كيف يمكن...؟ إني لا أجد الكلمات، يضيق صدري ولا ينطلق لساني. بل لا قدرة لنا على الكفر بالصنم. لا نزال نخاف من الأصنام إلى الآن. لم نتحرر بعد ولا نجد كلمات للتعبير ولفضح ما نحن فيه من الظلام والحيرة والجهل. إن الإيرانيين لما قاموا بثورتهم العجائبية التي أفزعت العالم، لم يتمكنوا من تصدير ثورتهم الشعبية السلمية إلى العالم الآخر، أو حتى إلى جيرانهم. لم يكن أحد ليستطيع أن يعترض على تصدير مثل هذه الثورة السلمية التي واجهت البنادق بالزهور والورود نساءً ورجالاً، وطردوا الشاه من غير أن يطلقوا رصاصة واحدة، ولم يعد يجد ملجأً في العالم. فكما أن الإيرانيين لم يستطيعوا إبراز هذا الموضوع، وكأنه عيب أن تنجح بأسلوب سلمي وسكتوا عن هذا الجانب من ثورتهم وتمكن الخبثاء من إدانة إيران بأنها تدعم الإرهاب أو تصدر الإرهاب كذلك بقية المسلمين لم يدركوا ميزة هذه الثورة. ليس فقط أن إيران عجزت عن تصدير ثورتها العجائبية إلى الآخرين بل الآخرون أيضاً لم يستطيعوا فهم الموضوع على الإطلاق. وهذا جهل مأساوي. إن ميزة ثورة إيران هي في كونها ثورة فكر وثورة شعب، بل حتى كانت ثورة المرأة. هذه الثورة لا يجوز أن نطلق عليها ثورة لأن الثورة كلمة غربية، وإنما ينبغي أن نقول عنها إحياء الحركة النبوية وإعادة كفاح الأنبياء في هذا العصر. ولن تضيع هذه الحركة ولن تذهب سدى، فهي الحدث الخطير الذي هو باكورة الحركة الإسلامية.

أليس عجزنا عن فهم الحركة الإسلامية النبوية الإيرانية دليل على عقليتنا الأسطورية الخوارقية؟ يفسر كثير من الناس هذا الحدث على أنه خاص بإيران وبالشيعة، وكأن إيران والشيعة ليسوا من البشر. "بل أنتم بشر" وهذا قانون عام للبشرية جميعاً. واليوم وأنا أكتب هذه الكلمات أستمع إلى أخبار أندنوسيا وثورتها ضد سوهارتو وكيف مات المئات احتراقاً، ولقد شاهدنا السيارات التي تحترق وعرفنا أن الذين ماتوا احتراقاً هم الذين كانوا يشعلون المحلات بالنار، وماتوا خنقا وحرقا وهم ينهبون المحلات.

متى سيتعلم المسلمون معنى سيد الشهداء؟ متى سيفهم الناس الحدث الإيراني. فالإيرانيون لم يشعلوا النار في المباني والمتاجر، بل تحدوا منع التجول بعزم وإصرار. من الذي سيعلّم هؤلاء الناس بأن الكفاح النبوي هو لا يحرقوا ولا يسرقوا، أن يكونوا الأمناء والأمينين؟ أين العلماء؟ ألا يحق لأركون في مثل هذه المواقف أن يقول عن الذين يستشهدون بآية من القرآن أنهم يثيرون كل مشاكل العبور من العصر الأسطوري إلى العصر العلمي؟ هل نستشهد من القرآن بآية، "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض،" وبناءً عليها نقتل الرجال من الأسرى ونوزع النساء سبايا. نعم إن هذا كان عدلاً يوماً ما،

ولكن هل يبقى هذا الحكم؟ إن شريعة الله هي العدل بين الناس ومفهوم العدل يتطور إلى الأفضل، أي أن النافع سينسخ ما هو أقل نفعاً، وما يراه أهل الذكر والاختصاص أقرب إلى العدل يحكموا به حتى يجدوا ما هو أفضل وأقرب إلى العدل. ربما سيظل المسلمون في إشكالية كبيرة حتى يتفهموا أنه تحدث أشياء جديدة في التاريخ. وسيتمكن الذين من بعدنا بأساليب وتقنيات جديدة من حل هذه المشكلة من غير أن يشعروا أنهم يتحدون الله وكتابه ورسوله. ولن يشعروا أنهم يعطلون كتاب الله. بل إنهم سيعظمون الله وكتابه وشريعته وسيشعرون براحة عظيمة وسيشعرون أنهم رفعوا عن أنفسهم الآصار والأغلال لا أنهم تمردوا على الله ورسوله.

ولما يقال هل نوقف المقاومة ونخنع للعدو؟ أقول لا نوقف المقاومة، ولكن إذا كان هناك أسلوب أفضل وأنجع وأقل كلفة وأعظم فائدة ومكاسب، فعلينا أن نختار الذي ينفع لنا عامة. كم سيكون عظيماً لو تعاون العرب والمسلمون على البر والتقوى من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع ويقاطعوا العدو وكل من يتعاون مع العدو. أمريكا ضربت الحصار على ليبيا لتسليم المتهمَين إليها بينما قبلت ليبيا أن يحاكم المتهمان في بلد محايد. أليست هذه فرصة مهمة وكبيرة لفك الحصار عن ليبيا؟ ينبغي أن نقول أن ما تطلبه ليبيا حق وأن ما يطلبه الآخرون ظلم وليس عدلاً وأننا سنتحدى هذا الحصار. حين نغتنم مثل هذه الفرص فوراً ستفشل أمريكا وننجح نحن. ولكن لم هذا التبلد العجيب والسحر العظيم الذي لا نفرق فيه بين الممكن والمستحيل؟ بل ينبغي أن نضرب نحن الحصار على أنفسنا بدل أن يُفرض علينا. ربما أكون مجنوناً، ولكن أرى أن هذا ممكن وشعوبنا ستتحمل بكل سرور تبعة مثل هذه المواقف. ولكن لا يستطيع أحد أن يتحدث عن هذه الأمور، كأننا مسحورون وممنوعون. فكم مرة تمنت أمريكا أن تضرب الحصار على إيران ولم تستطع أن تعمل شيئاً بالذين عارضوا الحصار. نحن لا نفكر في الاستغناء عن الغذاء الأمريكي والكندي والأوربي، ونفكر بصنع قنبلة نووية. نحن نملك دجلة والفرات ونموت من فقدان الغذاء والدواء. ما هذه الخرافات ما هذه الجهالات؟ لا يطيق عقلي مواقف المسلمين من أعدائهم، وليعتبرني من شاء أنني مجنون. أشعر أنني مع أركون في أننا نعيش عصر الأسطورة والخوارق. فلماذا نحاول حل هذه المواضيع بالطرق التي يتمنى عدونا أن نحل بها المشكلة ولا نحاول حلها بدون حرب وبمواقف إنسانية وإيمانية؟ لماذا احتلت العراق الكويت ولماذا لم تضرب بصواريخها المفاعل الإسرائيلي، وقد دمر الإسرائيليون مفاعل العراق؟ لو فعلت العراق هذا بدل أن تحتل الكويت لجرت العرب كلهم إلى جانبها. ولكن ماذا نصنع بهذه الصواريخ إن كانت لا تنفعنا؟ أين العقول أين المفكرون؟

إن بلداً واحداً إذا أدرك الأمور على أساس العلم الذي يعيشه العالم الآن سيتمكن من جمع شمل العرب والمسلمين، لا بأن يفتح بلاد جيرانه بالقوات المسلحة الخرافية الأسطورية الخوارقية. لا يمكن لديكتاتور أن يحكم بلداً يفهم شعبه العلم وما وصل إليه الناس من الوعي الديمقراطي. ولا يمكن لبلد متخلف أن ينعم بحاكم ديمقراطي. لا أدري ماذا سأقول؟ إن الأمر كما يقول محمد إقبال:

ومزقت الجيوب وأنت خالي   جنوني لا ألومك في قصوري.

يعني إقبال بهذا البيت أنه لو كنتُ مجنوناً بما فيه الكفاية لنقلت إليك جنوني بالعدوى، ولكن جنوني ليس كافياً ليعديك.

هناك أمور لا قدرة لنا أن نفكر فيها، وما لم نفكر فيها سنظل نقدم لعدونا على طبق من ذهب ما يتمنى أن يتهمنا به كما يقول جارودي.

هناك قصة شعبية عن يتيم كان شخص يشرف على أمواله ويسجل النفقات التي ينفقها، وعندما اطلع اليتيم على السجل وجد فيه نفقات صرفت في شراء وأجور نعال للجمال. فسأل اليتيم وصيه: هل توضع للجمال نعال كما للخيل؟ فقال الوصي الذي يشرف على أموال اليتيم: إذا صرت تفهم يا بني أن الجمال لا تحتاج إلى نعال فخذ أموالك، لقد بلغت الرشد. ولكن العالم الإسلامي لم يبلغ الرشد بعد ولا يزال ينعل الجمال ويستعد بالخيل والبغال والحمير والجمال ليجاهد في سبيل الله.

إننا لا نفهم العالم الذي نعيش فيه. إن الوحدة الأوربية حدث جديد في العالم. لا تتوحد أوربا بالفتح العسكري. فات أوان هذا النوع من التوحيد. والآن يقول المغرب العربي للوحدة الأوربية خذوني، ضموني إليكم. متى سنفهم حدث الوحدة الأوربية؟ إنها لا تصنع بالأساطير وإنما تصنع بالعلم، بالمعرفة. نحن لا نستطيع فهم هذا، ولا نحاول نشر العلم والمعرفة. بل ننفق المال الذي يمكن أن ينفق على العلم والمعرفة في شراء الأسلحة. يا له من تناقض! من الذي يستطيع كشف المرض الإسلامي؟ كان يُطلَق "الرجل المريض" على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وكانت الحرب لتوزيع تركة هذا الرجل المريض. ياطير يا خفيف الجناح، يا من يتمتع بالنسيم ما يدريك ما نحن فيه من الظلام والأشباح والغيلان، هل يمكن أن نفهم؟ إن هذا العالم الذي نعيش فيه مسحور، وإن فك السحر ليس في حاجة إلى حرب، بل في حاجة إلى معرفة. وبما أني أشعر أني لا أستطيع نقل معرفة العالم الجديد والتكيف معه، سوف أترك متابعة بحث مشكلة العنف والحرب والقوة والإعداد للحرب.

إن الاتحاد السوفيتي لم يؤت من قلة الأسلحة وإنما من قلة الفهم والمعرفة. "فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم". في أواسط الخمسينات، كنت في بلد عربي وكان لي صديق قاضي شرعي يحكم بين الناس في الدماء والأموال والأعراض. وكان بيننا في الظاهر تبادل معرفي أسطوري. وفي عصر يوم بينما كنا وحيدين في المسجد، فاجأني بسؤال قائلاً: يا شيخ، يقول هؤلاء الكفار أن الأرض تدور؟ أما يرون كيف تدور الشمس حولنا؟ تفاجأت، ولكن تمالكت نفسي وقلت له: كفار لا يفهمون، لأني شعرت أنه لا يمكنني أن أنقله إلى العلم في هذا الموضوع. وهذا ذكرني بطفل الوزير الذي نشأ في السجن في القصة التي يذكرها ابن خلدون في مقدمته حين ظن الطفل أن الفرس مثل الفأر الذي يراه في السجن لأنه لم يكن قد رأى حصاناً، فكان يسأل والده ببراءة ويقول هل الفرس مثل الفأر يا أبت؟ في النهاية نحن أيضا نضطر أن نسلم له ونقول: نعم هو مثل الفأر يا بني.

إن إسرائيل أسطورة وشبح وفزاعة تفزع المسلمين والعرب الذين يعيشون الأسطورة والخارق. إن الصنم لا قوة فيه. نحن الذي نعطيه القوة بإيماننا به. إن الإيمان الأسطوري قوة غير قابلة للفك والاختراق، وإلا كيف نفسر بالعلم ومن غير خوارق لماذا تركنا إسرائيل في حرب الخليج الثانية وشعرنا أن المشكلات التي بين العرب بالذات أخطر بكثير من الشبح إسرائيل. وكذلك المشكلات التي بيننا أيضاً شبح وأسطورة. آمنا بالقوة فسدّت أمامنا كل الطرق، لأننا لم نر ولا نرى ولن نرى في المستقبل القريب إلا القوة لتوحيد العرب والمسلمين. لهذا كان بدى غزو الكويت منطقياً بحسب المعرفة الأسطورية التي يعيشها العالم الإسلامي.

ولهذا يرى أركون أن المسلمين لم يعبروا من إشكاليات الأسطورة. ونرى هذا المعنى حين يقول إقبال بأن الإسلام وإن نشأ في عصر ما قبل العلم إلا أنه بشر بعصر العلم. إننا لم ندخل عصر العلم والفهم إلى الآن. نحن ما زلنا في العالم المسحور، عالم الأشياء والأشباح، أما عالم الأفكار وعالم الحقائق فلن يمكن الدخول إليها ما دمنا نعيش بعقلية عصر ما قبل العلم.

من الذي سيشخص مرضنا؟ ومن الذي سيكشف الجرثومة التي تجعلنا كما نحن؟ كثيراً ما أوجه مثل هذه الأسئلة. سؤالك الذي جاء عن العنف كان أطول الأسئلة وأنا ينبغي أن أجعل الجواب أطول الأجوبة. كان أيضاً يقال لي كيف تقول باللاعنف وقد خطفت الديمقراطية من الجزائريين الذين نجحوا في الانتخابات وحرموا من نتائجها؟ فماذا سيفعلون غير اللجوء إلى العنف؟ كنت أقول لهم، تنسون ثورة إيران. فهم لم ينجحوا بانتخابات في صناديق الإقتراع، وإنما نجحوا بمقابلة الجنود بالورود. كيف نفسر هذين الحدثين: ثورة الجزائر وثورة إيران. مع الأسف يرى المسلمون أن إيران لا تخضع للعلم ولا للتفسير. يرون أنها خارقة عن القوانين والعلم والمعرفة، أنها أسطورة وخوارق. ماذا يفعل العنف في الجزائر الآن؟ وماذا عملت مواجهة الجنود بالورود في إيران، لا فرحاً بهم ولكن تحدياً لهم، أي تحدوا العنف باللاعنف كتحدي ابن آدم؟ لكن الإيرانيين لم يفتخروا بهذا الذي فعلوه لأنهم لم يدركوا أهميته. إن عيسى عليه السلام يقول في الإنجيل: "من منكم يوقد مصباحاً ثم يضعه تحت المكيال، وإنما ينبغي أن يوضع في مكان عال يراه كل الناس". كان على الإيرانيين أن يضعوا أسلوبهم اللاعنفي كالمصباح عالياً ليراه كل الناس. ولكن الإيرانيين وضعوا مصباحهم تحت المكيال. ينبغي أن يُبحث عنه في الظلام الذي أحيط به حتى يتمكن الإنسان من أن يحس به.

إني لشديد الألم والأسف أن يُهمل مثل هذا العمل الإبداعي العلمي السني المستقبلي هذا الإهمال. ينبغي أن تنشر الصور والشروح في الأجهزة السمعية والبصرية حتى لا يبقى إنسان لم ير هذا المشهد. إن ثورة إيران مثل كل الثروات التي يطفح بها العالم الإسلامي ولكنها لم تُستثمر. فكما ذكر إقبال عصر العلم وأركون مشكلة العبور إليه فإن مالك بن نبي أيضاً قال: "إن الغرام السقيم الذي أصيب به العالم الإسلامي في تعلقه بالقوة حجب عنه قيمة المعرفة وقيمة الأفكار وأن الأفكار رصيد للأمة". وكان يضرب المثل فيقول إن ألمانيا في الحرب خسرت كل عالم أشيائها ولكن عالم أفكارها كان حياً فلهذا استطاعت أن تعيد بناء عالم أشيائها بسرعة. بينما العالم الإسلامي، الذي عالم أفكاره مصاب بالعقم، يعيش عالم الأشياء ولم يدخل بعد عالم الأفكار.

حين يقول لي عبد الجبار، هل يدعو جودت سعيد إلى تعطيل الجهاد كفريضة ولو توفرت كافة شرائطها، فإني سأعكس السؤال، هل السيد الرفاعي سيلجأ إلى القتال ولو أن الأمور كلها يمكن حلها بدون قتال؟ ما معنى الرشد؟ وما معنى الديمقراطية؟ إنه تسليم الأطراف جميعاً أن لا يحلوا المشكلة السياسية بالعنف. إن الديمقراطية لن تدخل بلداً يؤمن أهله بجواز أو وجوب صنع الحكم بالعنف. ألم نقل إن الإيمان الذي يصنع بالعنف والإكراه ليس بإيمان ولا الكفر الذي يصنع بالإكراه كفراً.

إن العالم الآن –العالم الحديث أو عالم الكبار حسب المصطلح الذي يذكره مالك بن نبي أو عالم الاستكبار حسب مصطلح الخميني– لا يمكنه حل مشكلاته بالعنف وهذا واقع كبير لم يفهمه العالم الإسلامي بعد، وكذلك لا يمكن لعالم المستضعفين أيضاً أن يحلوا مشكلاتهم بالعنف. إن حربي الخليج أكبر دليل على ذلك ولم تحلا أي مشكلة بل أدت إلى خسائر فقط لكل الأطراف المتحاربة، ما عدا عالم الكبار الذين ربحوا السحت أيضاً. إذا كان هناك عبرة وحيدة من حرب الخليج فهي أن لا نعيد مثل هذه الحروب التي نسميها جهاداً في سبيل الله ونزعم أنها وفرت كل شرائط الجهاد. يمكن أن أقول إن أمريكا لا يمكن فتحها بالحرب ولكن يمكن غزوها بالفكر. سألني بعض الناس كيف ترى أمريكا؟ قلت لهم: أمريكا تقول أقنعوني وخذوني، ولكن كيف نقنع أمريكا؟ هل نقول للأمريكان، تعالوا اعبدوا زعماءنا مثلنا. إن الإسلام بقوته الذاتية يخترق، مع كل قباحاتنا، جميع المجتمعات البشرية ولكننا نحن الذين نصد عن سبيل الله. رحم الله مالكاً، كان يقول: إن الماء يجري في المنحدر ولا يمكن أن يسقي الماء الذي في الأسفل الذي في الأعلى. نحن ليس عندنا فكر ولا حل للمشكلات. إن العالم الآخر هو الذي يحل مشكلاته بالعلم ولا يحلها بالأسطورة والخارق. فالذي عنده فكر الآن يمكن أن يغزو العالم. والفكر هو الخارق الآن وليس الصواريخ. بل إن الإنسان هو الذي سينتصر على الأصنام.

ألا فلتنعم عظام الخوارج في قبورهم! فقد تحول العالم الإسلامي كله إلى مذهبهم. وشروط الجهاد عندنا مثل شروط الخوارج، أن تكون مقتنعاً أنك على الحق وتكفّر حتى علي بن أبي طالب وتغتاله. ماذا سأقول؟ يبدو أننا في حاجة إلى حروب ودماء وعذابات أليمة حتى نؤمن. "فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم".

إن التاريخ هو الذي يعلم الناس الاعتبار. فالشقي من وعظ بنفسه، والسعيد من وعظ بغيره. يظهر أن الناس لا قدرة لهم على الاعتبار، ولهذا يذكر القرآن هلاك الأمم ولا يذكر أنها اعتبرت وتفادت الهلاك، إلا قوم يونس. ولكن تراكم العبر سيعلم الناس وتكفي حربي الخليج حتى لا نكرر حرباً ثالثة وتكفي العبر الأخرى. لهذا حين لا نعتبر التاريخ مصدراً للمعرفة لا نستطيع تفادي عقوباته. "كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد"، وقال: "لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم". إننا سنتعلم، وأعترف أننا لا نزال ضعيفي الحجج وعندنا قصور في البيان، فلهذا لا ألوم الذين لا يفهمون علي وإنما ألوم نفسي قبل كل الناس. إننا إلى الآن لم نتعلم البيان الصادع، ولكنه قرب. وكأني بكثير من عقول المسلمين تنضج في هذه العذابات الأليمة التي نعيش فيها الآن.

السؤال السادس: يعطي جودت سعيد أهمية فائقة لفكر محمد إقبال ويعتبره فكراً أتى بالكثير مما هو جديد. ما هي الأبعاد التأسيسية في مشروع إقبال؟ وما هي آثاره في الفكر الإسلامي المعاصر في البلاد العربية ؟

الجواب: ماذا أقول عن محمد إقبال، إن أشد ما جذبني إليه أنه كان مؤمناً قوي الإيمان إلى أعمق درجة من الخشوع وكان يجمع إلى ذلك الإيمان الفهم العميق والواعي للعالم المعاصر في أعماقه الفلسفية. وكنت أعجب لهذين الأمرين الذي جمعهما هذا الرجل. وكان الوضع الذي نعيش فيه يفتقد تعانق العلم والإيمان، فكنت أشعر بالحاجة إلى هذين الأمرين، وكنت أجدهما عند محمد إقبال على درجة لم أكن أجدهما عند أحد بهذا الشكل القوي العتيد الراسخ. كان راسخاً في فهم التراث مشبعاً به، وكان حاضراً الحداثة المعاصرة في مواطنها وبلغاتها. ما يزال هذا النوع نادراً في المسلمين إلى الآن. من يعرف التراث يفتقد الحداثة، ومن يعيش الحداثة يفتقد التراث. فهذا هو مرضنا إلى الآن، ومحمد إقبال فهم عمق الحدثين. ولهذا كان مجدداً في فهم التوحيد {علم الكلام} أو الثيولوجيا الجديدة التي كان ولا يزال يحن إليها محمد أركون. وكان إقبال مجدداً في التصوف يميز الغث من السمين، وكان مجدداً في الفقه، في الشريعة وفقه المعاملات. وإلى الآن لا يوجد عندنا من استثمر ورسخ ما وصل إليه من القواعد التي انطلق منها. كان إقبال يعلم جدة ما جاء به، ويعلم أن من حوله لا يفهمون عليه وأنه وحيد في المجتمع كالشمعة. فيقول:

صيد أفكاري ظباءٌ لم تُرَمْ   لم تسيب بعد من قيد العدم

ويقول أيضاً:

أنا في يأس من الصحب القديم   مشعل طوري ليغشاه كليم

وكان يقول عن نفسه أنه صوت وأن الشاعر الذي سيبلّغ هذا سيأتي في المستقبل:

أنا صوت، شاعري يأتي غداً   ما بهذا السوق يُشرى يوسفي

وختم ديوانه "الأسرار والرموز" من أنه لو تمكن في المستقبل من أن يقدم من لحده بعد موته سيرى أرضاً سيفرح بأن تكون له موطناً.

أما آثاره في الفكر الإسلامي المعاصر، وفي البلاد العربية بالذات، فضئيلة جداً. فلم يفهم عنه إلا أنه شاعر يمدح الإسلام ونحن شبعنا مدحاً للإسلام. كان يقول: يظنون أني شاعر، يقولون لي امدح كذا واهج كذا. إنهم لم يفهموني. ولقد كتب عنه هاملتون جيب المستشرق الإنجليزي في كتابه، "الحركات الحديثة في الإسلام" أن إقبال كان يفهم الإسلام فهماً جديداً ومختلفاً ولكن كانت نداءاته كصيحة في واد أو نفخة في رماد. لم يكن هناك من يستجيب له أو يفهم عليه، ومبلغ من كتب عنه أنه كان معجباً بشعره في مدحه الإسلام. ولكن كان كلهم متحفظون منه، يخوّفون الناشئة بأن له شطحات صوفية أو اجتهادات غير مقبولة. كانوا يخافون من اعتماده التاريخ والعواقب في تقييم الحضارات ويخافون من فهمه للشريعة وأن أحكامها قابلة للمراجعة بحسب العواقب. والخلاصة أن أفكاره التجديدية أحيطت بالغموض والتشكيك. وأكثر الناس لم يعرفوه ولم يجدوا الوقت لتأمله وفهم أبعاده. كان إقبال يرى عالماً مختلفاً. فهو يقول: إن كعبتنا عامرة بأصنامنا وإن الكفر ليضحك من إسلامنا، وإن شيخنا قامر بالإسلام في عشق الأصنام، مفتينا بالفتوى يتاجر، وواعظنا إلى بيت الصنم ناظر، لقد ضيعوا حرمة الملة البيضاء. ويقول أيضاً: تصل هذه المعرفة إلى نظرية إسلامية تقول بالخلق المستمر، أي أن الكون ينمو ويزداد. ومن أهم أصول التعاليم التي جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها. والله يقول: "لكل أمة أجل". هذه الآية مثل من أمثلة الأحكام التاريخية في القرآن... وهي في صيغتها البالغة الإيجاز توحي بإمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية وكأنها كائنات عضوية...

إن عناية القرآن بالتاريخ بوصفه مصدراً من مصادر المعرفة الإنسانية تذهب إلى أكثر من مجرد الإشارة إلى تعليمات تاريخية، فقد وضع لنا قاعدة من أعمق مبادئ النقد التاريخي. يقول إقبال: "تجد الثقافة الجديدة في مبدأ التوحيد أساساً لوحدة العالم كله. والإسلام بوصفه دستوراً سياسياً ليس إلا أداة عملية لجعل هذا المبدأ عاملاً حياً في حياة البشر العقلية والوجدانية، فهو يتطلب الطاعة والإخلاص لله لا للعروش والتيجان." ولما يتناول إقبال التشريع والجمود الذي أصاب الفكر الإسلامي، يذكر النزاع في قدم القرآن. ثم يذكر التصوف وأنه أدى إلى حجب أنظار الناس عن الإسلام بوصفه دستوراً اجتماعياً. ويعتبر إقبال أن سقوط بغداد السياسي كان سبباً في خشية رجال الفكر المحافظين من وقوع انحلال اجتماعي مثل الانحلال السياسي، فقاموا بتركيز جهودهم كلها بغيرة شديدة في أمر واحد، وهو الاحتفاظ بحياة اجتماعية مطردة للناس جميعاً، فأنكروا كل تجديد في أحكام الفقه. كان النظام الاجتماعي بيت القصيد في تفكيرهم، وفي هذا شيء من الصواب حيث أن النظام يقاوم قوى الانحلال. ولكن فاتهم، كما فات علماءنا المحدثين أيضاً، "أن مصير شعب من الشعوب لا يتوقف على النظام بقدر ما يتوقف على قيمة الأفراد وقوتهم. والجماعة التي يسودها التنظيم الزائد يتلاشى فيها الفرد تلاشياً تاماً إذ هو يجني قطاف كل ما حوله من تفكير اجتماعي ولكنه يفقد روحه هو، ولهذا فإن تبجيل التاريخ الماضي تبجيلاً زائفاً وبعثه المصطنع ليس علاجاً لانحلال شعب... والقوى الفعالة الوحيدة التي تقاوم قوى الانحلال هي تنشئة أفراد ذوي فردية قوية. ومثل هؤلاء الأفراد هم وحدهم الذين تتجلى فيهم أعماق الحياة فهم يجهرون بمقاييس جديدة نبدأ نرى في ضوئها أن بيئتنا ليست واجبة الحرمة في كل شيء". من تجديد التفكير الديني في الإسلام، من الفصل الخامس والسادس. عنّونهما إقبال "بروح الثقافة الإسلامية " و"مبدأ الحركة في بناء الإسلام".

هذا أسلوب جديد في البحث. تأملته كثيراً ورأيت فيه زلزلة وضعنا وإزالة التقديس لبيئتنا وما اكتسبوه ونسبوه إلى الله، وأن هذه البيئة ليست واجبة الحرمة.

إلى الآن لم نستثمر فكر محمد إقبال ولا بد من معايشة أفكاره طويلاً لتفهم أبعاده الفكرية. ينبغي أن يكون إقبال موضع تداول وحوار ونقاش حتى تُستثمر هذه الأفكار وتُزاد تطوراً وتوسعاً وتعمقاً، وسوف تزداد منطلقاته وتطلعاته قبولاً واحتراماً من الأجيال، وستكثر الدراسات عنه وعن مزاياه. إنه أحد العقول الكبيرة التي كرست حياتها لخدمة الإسلام، فرحم الله إقبالاً في الخالدين، إنه أنعش حياتي ونوّر تصوراتي بقوة إيمانه وسعة علمه. إنه عَلم ومنار في مسيرة الإسلام والإنسان.

السؤال السابع: العولمة قناع جديد تختفي خلفه الحضارة الغربية، كيف يتسنى تحصين الهوية الحضارية وتأكيد الخصوصية وتجذير الهوية في مواجهة الدعوة للعولمة؟

الجواب: ينبغي أن نكرر أن أجوبتنا ليست نهائية ولا محيطة. ولكن علينا أن لا نتوجس خيفة من المصطلحات ولا من التلاعبات التي تحيط بالحقائق أو محاولة الاستفادة من الأفكار الكبيرة واستغلالها من بعض الأطراف لصالحها الخاص، فإن الأفكار الكبيرة لا تخدم في مسيرتها الظافرة إلا الإنسان في نهاية المطاف. وربما كان هذا المقصود من القول الشائع: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون العلم لغير الله. وكلمة العولمة من العالمية، والله تعالى رب العالمين وليس رب شعب من الشعوب. والعالمية قادمة لا محالة، لأن أمة النبوة واحدة في الأصل الحيوي والمادي. فكلنا من آدم وآدم من تراب وليس لأحد فضل إلا بمقدار ما ينفع الناس، جميع الناس وليس بعض الناس. والله كما هو رب العالمين فهو "رب الناس" أيضاً، وما ينفع الناس سيمكث في الأرض.

كان البشر موزعين في الأرض ولم تكن بينهم صلاة ولا يعرفون طرف العالم بل ولا يعرفون إن كان هناك بشر في طرف العالم الأرضي. ولكن البشر عرفوا العالم الأرضي وكل البشر الذين على الأرض، ولم يبق الآن بشر ولا أرض لم تدخل في معرفة الناس. بل يريد البشر الآن أن يعرفوا فيما إذا كانت هناك كائنات حية، ومتطورة في وعيها مثل البشر، في الكواكب والمجرات البعيدة. كل الكشوفات الكبيرة والعظيمة كانت تُستغل من قبل مكتشفيها في أول الأمر

ولكن هذه الكشوفات كانت تنتقل وتعم الناس فتصير عالمية، مثل استئناس الحيوان واكتشاف الزراعة واكتشاف الكتابة. إن الكتابة كانت محصورة في بيئات معينة، حتى إن العرب قبل الإسلام لم تكن قد دخلت إلى عصر الكتب، ومفهوم "أهل الكتاب" ينبغي أن يتوسع في مدلوله، لأن الدخول إلى عصر الكتابة هو بدء التاريخ وبدء الاستثمار الصحيح لطاقة الإنسانية الفكرية. إن الأنترنيت مثلاً كان من ابتكار وتطبيق موظفي البنتاغون للتواصل السريع ولكن هذه التقنية فلتت منهم وصارت عالمية ولن يتمكن أحد من السيطرة عليها بعد الآن واستغلالها لصالحها الخاص. كذلك العولمة، أي تنظيم العالم. صحيح إن العالمية تقتضي سيطرة وتنظيم عالمي، ولكن الذين يريدون أن تبقى العالمية امتيازات لبعض الناس فهم في وهم، وهذه أمنياتهم فقط. ينبغي أن لا نكون ضد العالمية، ولكن ينبغي علينا أيضاً أن نرفع مستوانا حتى لا يتمكن أحد من استغلالنا.

وأعظم ما كشفه الأنبياء وأرادوا أن يعلموه للناس هو أن الإنسان لا يمكن أن يُستغل ويُستذل إلا برضاه وبجهله. فإن تعلم هذا فلا يمكن أن يستغله ويستذله أحد، ولن يرضى هو. بل حتى ولا يمكن أن يستغل. فمن هنا كان نشر العلم وعدم كتمه وحصره هو ما بُعث به الأنبياء. والتقنيات صارت عالمية أي أن الحصول على المعلومات صار متيسراً. ليس الآخرون هم الذين يكتمون المعلومات عنا وإنما نحن الذين نخاف من المعلومات. نخاف أن نعرف ما حدث، بينما لا نجاة لنا إلا بالمعرفة والقراءة. قراءة كل شيء صار ممكناً والعالم الإسلامي هو الذي يمتنع عن الدخول إلى المعرفة.

آه يا خفيف الجناح، يا من يتمتع بالنسيم، ما يدريك ما نحن فيه من الظلام والحيرة؟ إننا نريد أن نحفظ أنفسنا بالتغييب عن العالم. ولكن العلم نفسه تحرر وصار في كل بيت، ونحن نرفض ونخاف. وبرضانا نبقي أنفسنا وشعوبنا في الظلام. علينا أن لا نخاف من الفكر والمعرفة. علينا أن لا نخاف حتى من الكفر. ونحن اختلط علينا الكفر بالفكر، فلهذا نخاف من الفكر كما نخاف من الكفر. ولكن نجهل أن الكفر نتيجة غيبة الفكر وليس العكس.

متى سنتعلم؟ متى سنتحرر؟ إن المسيح يقول: "تعرفون الحق والحق يحرركم". المعرفة قوة والمعرفة تحرر والمعرفة عالمية، وينبغي أن ندخل عليهم الباب. لا يمكن استغلال إلا الجاهل. متى سيتعلم العالم الإسلامي أن لا يخاف من المعرفة؟ من الفهم؟ من الحضور؟ لا يمكن أن تغيب نفسك الآن. لم تعد أرض الله واسعة. ضاقت الأرض ولم يعد هناك ملجأ لنخفي أنفسنا عن المعرفة. فإن نحن غيبنا أنفسنا نكون مثل النعامة التي تدفن رأسها. ولكن هذا الأسلوب ليس هو طريق النجاة. إنما النجاة باقتحام المعرفة، أن نكون شهداء لا غائبين لما يحدث في العالم وعما يحدث في العالم. كانت طريقة علماء المسلمين في مواجهتهم للمعرفة المتفجرة أن نغيب أنفسنا عن العالم. ولكن لم يعد هذا ممكناً. إنني أعترف بكل القوة والتأكيد أنني ضعيف البيان في كشف الأصنام التي تسد علينا سبل المعرفة. ولكن العلم يحمي نفسه، ورحم الله مالكاً حين قال: إن العلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح اللازم. والعلم ليس ضد الأخلاق. بل إن الأخلاق ثمرة العلم وخلاصة المعرفة والتجارب. وحين انفصل العلم عن الأخلاق صارت الأخلاق أغلالاً وأقفالاً وضلالاً. فالعلم هو علم العواقب ومعرفة العواقب هي الأخلاق. والأخلاق المنفصلة عن العلم والعواقب هي خلق الأولين، التمسك بالمنسوخ بالذي فات أوانه. الحمد لله رب العالمين، كم مرة يجب على المسلم أن يتلو هذه الآية. إن الجاهل يرتد عليه جهله بالخسارة، والخسارة والتخلف هو السوط، سوط الله. سوط العذاب هو الذي يسوق الناس إلى المعرفة، وكل شيء يصير علماً يصير عالمياً والإسلام حين نفهمه على علم يصير عالمياً ولهذا فلت العلم والإسلام من العالم الإسلامي، بينما أسلم الناس للعلم. والآن لا يمكن أن يخضع الناس إلا للعلم، "فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا". إن هؤلاء الذين يخوفوننا من العلم والمعرفة ليحفظوا علينا إيماننا يدعمون الشرك. إن إبراهيم عليه السلام علّمنا أن لا نخاف، والإسلام هو "لا تخف إنك من الآمنين"، وعباد الله لا خوف عليهم في المستقبل ولا هم يحزنون على الماضي الغائب. وإبراهيم هو الذي قال: "فكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون". "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"، "بظلام " لأن الظلم ظلمات كما ورد في الحديث. "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون".

اليقظة اليقظة! السمع السمع! البصر البصر! يا مسلمون! يا عالم! يا إنسان! إن الظلم والكفر والظلام هو خداع الناس وتأخير المعرفة عنهم واستغلالهم. الفرق بين الأنبياء وأقوامهم الرافضين أن الأنبياء كان كل همهم نشر المعرفة والعلم والنور ضد الظلام. وأقوام الأنبياء المعارضين يخافون من انتشار النور والعلم والمعرفة. ومرض العالم الآن هو أن الذين يعلمون يريدون أن يكتموا العلم، ويخافون من انتشار العلم والمعرفة ويعملون على تأخير انتشارهما. فهذا

هو الفرق بين المؤمن والكافر والأناني والإيثاري، ولكن الله الحق غالب على أمره. "ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون". إن نور الله سيعم العالم. "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون". "ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون". وإيماني بهذه الحقيقة ليس إيماناً بالغيب، بل صرت أراه في عالم الشهادة، أراه في آيات الله في الآفاق والأنفس، لم يعد شيئاً خافياً. وإن نحن لم نقم به فسيستبدلنا الله بغيرنا. الحق يجد أعوانه والقرآن سيخلق أتباعه. يستبدل غيرنا ثم لا يكونوا أمثالنا، فسوف يأتي الله بقوم يحبون الله رب العالمين. ويحبون خلقه ويرحمون عياله وهم سيكونون أقرب إلى الله منا.

ولنعلم أن الديمقراطية أقرب إلى الله ورسوله مما عليه المسلمون الآن. وأن الديمقراطية والكفر بالطواغيت ليس من ابتكار المسلمين ولا من مكتشفاتهم وإنما من مكتشفات غيرهم. بل إن المسلمين لا يستطيعون اقتباسها بعد أن اكتشفها الناس ونعموا بها وسلطهم بها علينا. إلى متى نظل نقفل أعيننا ونضع الأقفال على قلوبنا؟ متى سنضع الآصار عن كواهلنا؟ ومتى سنضع الأغلال عن أعناقنا؟ "إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً". لقد بزغ الفجر وانكسر الظلام وتحطمت القيود، و"أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون". "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين". وإنه لكائن، هل أجبت على السؤال؟ لا ونعم.

السؤال الثامن: تتكرر في كتاباتك الدعوة للتحرر من "الآبائية" أي التخلص من تعظيم الآباء وإعطاء العصمة لهم، وتبرر ذلك بأن الآبائية تحجب أية رؤية جديدة. هل يعني ذلك أنك تدعو للقطيعة مع التراث؟ أليس النمو من دون جذور هو نمو موهوم لأنه كنمو الهوام؟

الجواب: الجواب شكراً لك يا سيدي يا عبد الجبار الرفاعي. إن السؤال الجيد سيبقى مفتاحاً للجواب الجيد. سواء استطعت أن أقدم جواباً جيداً أم لم أتمكن فسيبقى سؤالك يتحدى الأخطاء. وأنا لا أشك أن الأسئلة ستصير مصقولة ومحددة وملحة، وكذلك الأجوبة حتى يتخلص الناس من الألم والقلق، الألم الجسدي والقلق النفسي. ويمكن أن أقول أنني في غضون أجوبتي السابقة قد تناولت هذا الموضوع. ولكن لأهمية هذا الأمر وأثره في الإعاقة أو الدفع إلى الأمام، ينبغي أن يعاد القول فيه ويكرر. لقد بحث الباحثون هذا الموضوع ولكن لم يستنفذوه ولن يستنفذوه. نحن لا ندعو للقطيعة مع التراث، حتى تراث ما قبل التاريخ، وتراث ما قبل الكتابة. إن الذين تمكنوا من استئناس الحيوان واستطاعوا أن يستنبطوا من مشاهداتهم زراعة بذور الأشجار والزروع لا يمكن أن ننقطع عنهم ونرجع إلى ما قبل الزراعة وما قبل استئناس الحيوان. فهذا عهد تجاوزناه ولن يعود الناس إليه. لقد حصلت القطيعة عن عهد ما قبل الزراعة ولن نرجع إليه ولن نتخلى عن الزراعة، ولكن مع ذلك يمكن أن يتطلع الناس في أن يتمكنوا من أن يقلدوا الأشجار وقوانينها وسننها فنصير نحن نرّكب ما تركبه الأشجار من ثمار وأغذية، فنتمكن من صناعتها بنفس القوانين ونصل إلى تصنيع الأغذية صناعياً وبوفرة لا نهائية وبكلفة قليلة على حسب قانون "ويخلق ما لا تعلمون". فكما تجاوز الناس عهد الخيل والبغال والحمير كوسائل انتقال وحمل أثقال إلى شيء لم يخطر على بال الذين من قبلنا، كذلك يمكن أن يصل الذين من بعدنا إلى أشياء لا يمكن أن تخطر على بالنا لأن "ويخلق ما لا تعلمون" لا يمكن إغلاقها وإقفالها. إنها مفتوحة وعطاء الله ليس له من نفاد. و"لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلما ت ربي".

إن الوقوف عند ما كان عليه الآباء في كثير من الأمور صار انتحارًا الآن. إن انتقال السلطة بالقتل والغدر، وفرح الناس بذلك، كان مقبولاً فيما سبق من الزمان حين كان الناس يفهمون الله وسننه على مستوى معين. إن الناس عندنا يفهمون أن الله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده كل شيء. ولكن الله أوصل البشر بسننه أقواماً هم أنفسهم يؤتون الملك من يشاءون وينزعون الملك ممن يشاءون. علينا أن نفهم حجم الآباء. إن آباءنا لم تكن لديهم قدرة على تفهم هذا الموضوع، فارتدوا إلى القتل والغدر ونبذ الأمانة والصدق ودخلوا باب الغدر والخيانة والسفك والسحل. أنا لم أجبك على هذا السؤال وإن أدواتي الفكرية قليلة وبياني ناقص ولا يزال يتصف بالغموض ولا يحصحص الحق ولم يأت بالبيان والبينات والمبين. وسيأتي ويتكون الآن في كل مكان من سيقومون بهذا البيان الذي سيخرج الناس من الظلمات إلى النور. إن قانون نظام الله في الوجود: أن الزبد سيذهب جفاءً وأن

ما ينفع الناس (جميع الناس) سيمكث في الأرض مهما طال الزمن وتأخر الفهم والإدراك. "وأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض." وقانون الله هو أن نتقبل من الآباء سواء المحليين أو الأبعدين أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، وأن نعتقد أن التاريخ وخلق الله لم يتوقفا عند آبائنا ولا آباء غيرنا. كلهم، كل الآباء يوماً ما كانوا يعيشون في الكهوف عراة، ويموتون افتراساً من الوحوش. ونحن نقرأ في القرآن قول يعقوب لأبنائه عن يوسف، أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. كان هذا شائعاً في تلك الأيام التي ليست موغلة في القدم.

لا بد من أن نصحح موقفنا من الآباء. والله يقول أن تقليد الآباء عقبة. إن الحب يعمي ويصم كما ورد في الحديث. والقرد في عين أمه غزال كما في الأمثال الشعبية، وكل فتاة بأبيها معجبة، إلى أن يبلغ الإعجاب إلى سد منافذ الفهم والإحساس ويصل إلى الإغلاق التام حتى "ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون". ولهذا ورد في بعض المأثور عن الرسول (ص): وكيف تعدل مع القريب. فمن هنا كانت شهادة الأقارب لبعض أو على بعض مرفوضة، التعصب للأب والعشيرة والقوم والدين واللون. ولهذا كان من الصعوبة رؤية الحق أو الباطل المتعلق بالآباء، وكان مرجع المعترضين جميعاً على الأنبياء هو الاحتجاج بالآباء. ومع أن القرآن يدين الذين يقلدون آباءهم فإن المسلمين يستثنون أنفسهم من فكرة الآبائية كأنهم ليسوا بشراً من البشر وكأن آباء الآخرين هم المدانون فقط، وكأن المجتمعات التي تقلد آباءها هي المخطئة فقط.

عندها تلوى الأعناق وتزيغ الأبصار ويشتبه الحق بالباطل. لهذا الأمر من الله بأن نكون قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا والأقربين أمر ثابت وصارم. وعلينا أن نخضع آباءنا لقانون التاريخ الذي لا يرحم الزبد. وخير للناس والأبناء والأحفاد أن يذهب الزبد جفاءً وخير للجميع أن يمكث في الأرض ما ينفعهم.

ولقد عشت وعاش كثيرون ولا يزال يؤثر فينا بأشكال مختلفة ما ألفنا عليه الآباء. وإن كان الزمن يخفف من غلواء تعظيم الآباء إلا أن المسلمين عظموا سلفهم بشكل فلكي في السعة والضخامة حتى بعد أن تبين عجزهم عن الاهتداء إلى حلول أفضل. إننا نعظم أسلافنا مع أنهم هم الذين تقاتلوا وخذلوا الحق وانتصر الباطل وأعادوا سنة الجاهلية. وإلى يومنا هذا لا نجد مخرجاً من السلبيات والعجز عن الفهم الذي تركوه لنا بينما تجاوزنا الذين نعدهم كفاراً واستطاعوا أن يبدعوا أساليب لحل المشكلات. إن الاتحاد الأوربي السلمي العلمي السوائي الذي يصنعونه بكل العناية أفضل وأقرب إلى الله ورسوله وعقلاء الناس مما نحن فيه من الفرقة والعداء والصراع الذي سد منافذ الفهم أمامنا ولا نجد لها فرجاً أو مخرجاً. ولكن العذابات الأليمة التي أذقنا بعضنا لبعض خفف من غلوائنا وبدأنا نكون موقفاً أقل عماءً وصماً. وبدأنا نفتح أفواهنا بالقول كما فعل إقبال من أن بيئتنا ليست واجبة الحرمة في كل شيء. لقد تخلص العالم من آبائهم ما عدا المسلمين الذين لا يزالون يتحدون العالم والتاريخ من أن الله لم يخلق مثلهم وأنه لن يخلق مثلهم.

فكيف سيقرأ الذين من بعدنا بحوثنا هذه وكيف سيحكمون علينا. إن حكم التاريخ أليم شديد. "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد". ونسأل الله العلي القدير أن يعلمنا الاعتبار، فنغير مواقفنا. يكفي ما ذقنا من العذابات حتى نتعلم الاعتبار من التاريخ.

السؤال التاسع: هل العقل الإسلامي في أزمة مثلما يصطلح على ذلك بعض الباحثين؟ وما هي آثار هذه الأزمة وحدودها؟ وكيف يتسنى لنا تجاوز هذه الأزمة؟

الجواب: كون الفهم والوعي الإسلامي في أزمة لا شك فيه ولا ريب. هذا يفقأ العين وتلمسه كل يد وهو خبر كل أذن. وما قصة الرجل المريض عن الدولة العثمانية ببعيد، وفي العادة آخر من يعلم بالقصة أصحابها.

حين نرى إنساناً مريضاً نعرف مرضه من شحوب لونه وامتقاع سحنته وعجزه عن خدمة نفسه بكفاءة ونشاط. وكذلك مرض العالم الإسلامي صار ظاهراً حتى لعوام المسلمين وأصبح معروفا للداني والقاصي. وقد ألف المسلمون لذلك قصائد ومناحات ويمكن تعداد آثارها. ربما لست ماهراً في تشخيص هذا المرض بدقة. نحن نخرب بيوتنا بأيدينا وفيما بين بعضنا، ونستعين على بعضنا بالذين نقول عنهم أعداءنا. ننفق أموالنا وأنفسنا في سبيل ذلك. وصدق الله لما قال عن الكافرين الذين ينفقون أموالهم فسينفقونها حتى تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ثم يحشرون أيضاً في عذاب الجحيم. كل شيء إلى الوراء والخسارة. ولا نجرؤ على أن نعيد النظر حتى سراً فيما بين جوانحنا. إن القسم الأخير من السؤال التاسع هو القسم المهم، كيف يتسنى لنا تجاوز هذه الأزمة؟

حين كنت أجيب على بعض الأسئلة السابقة كنت أشير إلى أسئلة لاحقة وأستعين بها على الإجابة. وأنا سأفعل مثل هذا في الإجابة عن الأسئلة المتأخرة فأشير إلى أسئلة سابقة لتساعد على فهم الموضوعات الآتية. السؤال الذي سأرجع إليه هو السؤال عن التاريخ، وذلك حين قلت في السؤال الرابع: "تشدد كتاباتكم على وجود مصدرين للمعرفة هما القرآن وتاريخ العالم، وأن الذي يجهل التاريخ لا يمكن أن تكون معرفته سليمة. ما هو موقع تاريخ العالم من القرآن وكيف يكون تاريخ العالم رديفاً للقرآن؟"

شكراً لك يا سيدي الرفاعي. لقد عبرت بكلمات قوية على لساني في أهمية التاريخ وأنه هو الأستاذ، والأستاذ الوحيد الذي يصبر على غفلة المغفلين. إن التاريخ مثل الكمبيوتر في جانب ما. فالكمبيوتر لا ينفعل وإنما بكل برود يقول: هذا خطأ، كرر محاولتك مرة أخرى. التاريخ هو العقل. ونحن عقلنا في أزمة، لأننا في أزمة مع التاريخ. إن بعض عباراتي في هذا الموضوع تقول: إن من لا يعلم التاريخ لا يُوثق بعلمه.

القرآن يقول أن الذي سيشهد له هو التاريخ، انظروا إلى عاقبة الذين يكذبون هذا، "فانظر كيف كان عاقبة المكذبين". التاريخ مصدر المعرفة كما شهد بذلك وعلى ذلك محمد إقبال. وفي القانون من أثبت الدعوى فهو الشاهد والقرآن يقول أن الذي يشهد له بالحق والصدق هي آيات الآفاق والأنفس. إذن، مرجع القرآن هو التاريخ، وهي آيات الآفاق والأنفس، وهي أيام الله. "وذكرهم بأيام الله". الأيام التي قصمت فيها ظهر البعير، الأيام التي انكسر فيها من انكسر، وانهزم فيها من انهزم، وهلك فيها من هلك. "وتلك بيوتهم خاوية لم تسكن من بعدهم".

تسأل كيف يتسنى لنا تجاوز هذه الأزمة؟

نتجاوز ذلك بالاعتبار بالذين من قبلنا وبالذين يعيشون معنا كيف كانوا في أزمة مثلنا وأسوأ. كيف كان العالم الغربي يذيق بعضه بأس بعض في حروب قومية ومذهبية وعالمية، كيف أذاق بعضهم البعض العذاب الهون وكيف رجال الدين المسيحيين الذين يتلون في كتابهم، "أحبوا أعداءكم"، أذاقوا بعضهم البعض العذابات. ثم كيف هم الآن تجاوزوا هذه الأزمة والأزمات؟ "إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".

إن لم نعتبر ونوحد مصالحنا بالأسلوب الذي يوحد به الأوربيون مصالحهم فسنضطر أن نفعل ذلك اعتباراً بعد أن نشبع عذاباً وخساراً. يجب أن نوحد من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع ونختزل التاريخ بأسلوب سلمي وعلمي. وإن لم نتعلم فسيعلمنا التاريخ، ولكن تعليم التاريخ بالعذاب. "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد". علينا أن نتابع الحدث الأوربي. إنه حدث جديد في تاريخ العالم. لم يحدث مثل هذا التجمع في البشرية من قبل. وكل شيء يحدث مرة فمعناه أنه صار علماً وسنة وقانوناً يمكن تكراره وإعادته مع الناس كلهم بتوفير قوانينه وتسخيره. لهذا كان واجباً علينا، ولا يزال يجب علينا، دراسة الحدث الأوربي من بداياته إلى نهاياته، وكيف تحت سمعنا وبصرنا يحدث ما يحدث ولكن لا نسمع ولا نبصر كأنه لا يعنينا ولا يفيدنا ولا عبرة لنا فيها. كيف تحملت ألمانيا الوحدة الجديدة، كيف تحملوا الخسارة الآنية لأنهم يبصرون الربح الآتي، كيف فتحوا الحدود، كيف يوحدون العملة. هذه لم تنزل من السماء، ولا رجال الدين هم الذين يعملون هذا. وإنما رجال العلم والتاريخ وعلماء الاجتماع وعلماء الإحصاء الذين يقدمون البيانات. إلى الآن العلم عندنا محقر والقوة هي المحترمة. إن ما يفعلونه أعظم من تفجير القنبلة النووية. ولكن لا يشترط لعمل مثل ذلك أن نصنع قنبلة نووية. فليس من الضروري أن نعمل مثلهم ونمر بنفس المراحل حتى نصل إلى ما وصلوا إليه.

آه يا سيدي الرفاعي! لعلي أعلم ما تعانيه من الظلام والحيرة، ولكن هل تظن أنك ستجد عندي نوراً وطمأنينة؟ إن المعرفة التاريخية نور ويقين وطمأنينة واختزال للتاريخ وتعلم بالمجان. غيرنا دفع الثمن ونحن نستطيع أخذ السلعة جاهزة إذا فتحنا أسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا. يقول جلال نوري، الكاتب الاجتماعي التركي العثماني، إننا سنتعلم أبجدية المعرفة وعند ذلك لن تقف أمامنا جبال ولا أنهار، إن حقنا الضائع سيرجع إلى أولادنا وأحفادنا مع ربحه المركب وبذلك عزاؤنا في هذه الأيام المظلمة المحيرة التي تُدفع فيها الأثمان من الأموال هباء، وهي قوام حياتنا، والدموع من الأيتام والأرامل والدماء من الشباب المتحمس الذي ينطح الجدار،لأن آباءه وضعوا رؤوسهم في الرمال. "إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون". نحن لم نحل المشكلات ولم نصل إلى نتائج، ومبلغ ما وصلنا إليه هو أنه صرنا نبحث ونسأل: هل يتسنى لنا أن نتجاوز هذه الأزمة؟ نعم سيتسنى لنا ويتسنى لنا الآن وسنحقق علم الله فينا من أننا سنخرج من الفساد وسفك الدماء. هذا علم الله فينا، هذا ما صرنا نقرأه ونراه في عالم الشهادة. إنه قريب المولد، إنه أقرب من حبل الوريد.

السؤال العاشر: كيف تقومون المشهد الثقافي العربي الراهن؟ وما هي الأسماء والمشاريع الفكرية التي تجتذبكم وتعتقدون أنها ليست نصوصاً مكررة؟

الجواب: تقويمي للمشهد الثقافي العربي الراهن ليس متشائماً مهما كان هذا المشهد بطيئاً. إن المشهد الثقافي العربي بدأ يتحول من تمجيد أو إدانة السياسيين إلى الرجوع إلى النفس. وهناك قصة تدل على الثقافة العربية خلال بواكير محنة فلسطين، حين أعلنوا الحرب على إسرائيل. فقد طلب صحفي من المفتي أمين الحسيني أن يقوّم الحالة، فكان جوابه: إذا تكلم السيف فاسكت يا قلم. لقد تكلم وكان له ضجيج وصخب وانقلابات وحروب وتبادل للتهم، وكان صوت المثقف وعمله خافتاً، إن لم نقل صامتاً ساكتاً. ولكن الآن لم يعد الناس، بعد نكبة الخليج، يحمّلون السياسيين التبعة. فقد بدأ المثقف يفكر بشكل مختلف وبدأ يفكر في الانقلاب الاجتماعي. وحصل هذا من قبل حين أُعلن في هزيمة حزيران 1967 ولو بصوت خافت، أن الهزيمة لم تكن عسكرية فقط، بل كانت هزيمتنا ثقافية. هذا هو تعليم التاريخ. فالثقافة لم يعد يحملها أفراد إصلاحيون فقط مثل الأفغاني ومحمد عبدو وتلاميذهم، وإنما صارت أعم ولم تعد هناك أسماء بارزة (كارزمية) مهدية أوحدية، بل برز اتجاه عام. فمثلاً نشوء مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت. وهي ليست مؤسسة سياسية ولا تابعة لدولة وإنما مؤسسة ثقافية دراسية تستقطب المفكرين والباحثين، ولها نشاط جيد في إنتاج الفكر والتحليل كما أن لها ندوات وملتقيات بحثية فكرية رصينة.

وكذلك المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن. إنه توجه صحيح وجيد وبدأ يخرج وينتج شباباً باحثين مفكرين وتفرع عنه كلية الدراسات الإسلامية الاجتماعية للنساء والرجال. وهناك تناغم مع العالم الإسلامي بشكل راسخ مهما كان متمهلاً وبطيئاً. هذه المؤسسات مع كل قصورها إلا أنها تزداد رسوخاً وقوة وإقبالاً وتقديراً من الآخرين. وكذلك الجامعات العربية التي تخرج الجيل الثاني والثالث. وهذا إضافة إلى الوسائل السمعية والبصرية والقنوات الفضائية التي تتكاثر في تنافسٍ وتأتي بالمفكرين والباحثين لمناقشة الموضوعات. والناس يراقبون ويقبلون عليها إقبالاً جيداً. وهذا شيء جديد جداً. وقد بدأ التنافس في عرض آراء الباحثين الاختصاصيين في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. والموضوعات متسارعة، وهي تبشر بخير كثير، مع كل جوانب القصور، ونتطلع إلى التحسين في الفهم والأداء والإخراج. وإن إنساناً يرصد هذا بحضور وإحصاء يمكن أن يضع أفهامنا وأعيننا على التطورات التي تحدث. وهذا يدعو للتفاؤل.

إن فكرة الديمقراطية وإن كان الحديث عنها قليلاً إلا أنها بدأت تتعمق في مفاهيم الناس. إن كلمات ومصطلحات "مسألة الآخر" و"تعدد الرؤى" و"حرية الكلمة" بدأت تولد وتتكرر وتتحدد لها مفاهيم. فهي تتحرك وتنمو وأصبحت الرقابة ممجوجة، ولم يعد ممكناً الحيلولة دون انتشار أفكار اكتسبت قوة

الاختراق، بحيث لم تعد أمامها حدود. إن وسائل تبادل المعلومات تنمو يوما بعد يوم. وهذا لمشهد ممتع لمن يتمكن من مراقبته. وكذلك معارض الكتاب في كل العواصم العربية، وتبادل المطبوعات والمحاضرات والباحثين، وتطور الفن العربي والمسلسلات التي يتنافس أصحابها في الإبداع أصالة وحداثة.

نعم يمكن أن نرى جوانب نقص كثيرة ولكن الأمور تتقدم برسوخ. والأيام قريبة وأقرب مما نظن للعودة إلى التواصل والالتئام. حتى يمكن أن نقول لئن رجعنا إلى التواصل فلن نتقاطع بعد. فكأن هذه الأشياء تحدث حتى دون كلام، لأن الظروف صارت تفرض الانتقال إلى علاقات جديدة. فحتى المكرر صار يحمل معنى جديداً، فالتطور ماحق ساحق سريع لا يسمح بالتوقف. مع كل هذا، فالمتشائم لا يمكن أن يرى إلا التقليدي المكرر الممل الذي لا يجلب الانتباه حتى في المجال السياسي. هناك كلمات وإن كانت خافتة وغير مكررة كثيراً إلا أنها ولدت وصرنا نسمعها. إن تصريح وزير جزائري عقب الإنتخابات: "خسرنا الانتخابات ولكن ربحنا الديمقراطية" لكلام جديد وغير مكرر. وهو إبداع وتطور ومبشر بخير كثير. وكذلك يصرح سلمان بن عبد العزيز، وزير الدفاع السعودي في واشنطن: "أن الشعوب لها رغبات لا يمكن أن تتجاهلها طويلاً". فهذا أيضاً كلام غير مكرر، وليس بلا معنى. إن التطور ملموس ضمن هذه التصريحات. ونسمع مسؤولاً أردنياً يقول ما فحواه: لماذا إذا استجبنا لرغبات شعوبنا يعتبر ذلك تطرفاً وتراجعاً؟ ولماذا هم يعتبرون استجابتهم لرغبات شعوبهم قيمة إنسانية وتقدماً وتطوراً نحو الأمثل؟ فكل هذه وأمثالها ليست قليلة، وإن كانت قليلة البروز خلال الضجيج الصاخب وتبادل الإدانات. إن العالم العربي والعالم كله تصدع بعد حربي الخليج. فالكل راجع حساباته سواء المستضعفين أو المستكبرين. إننا سنضطر جميعاً أن نتكيف مع التاريخ. وهذه الظاهرة ظاهرة عالمية في عموم أفريقيا وآسيا وجنوب أمريكا. إن العالم يولد ولادة جديدة مع كل الآلام والآمال التي تصاحب كل الولادات.

السؤال الحادي عشر: يلح الدكتور محمد أركون على ضرورة ثيولوجيا جديدة للإسلام والدين عامة مثيراً أن هذا الموضوع لم يزل بكراً. كذلك يسخر أركون من الذين يستشهدون بالقرآن حول حكم ما قائلاً: إن هذا العمل يثير كل المشاكل للعبور من العصر الأسطوري إلى العصر العلمي. كيف تقومون هذه الدعوة ؟

الجواب: يا سيدي عبد الجبار، إني لأعجب ما الذي جعلك تختار محمد أركون حتى تجعله موضع أحد أسئلتك. إنني لم أبرز في كتاباتي محمد أركون ولم أضعه في سلم أولوياتي وإن كنت قرأته باهتمام وأردت أن أعرف ماذا يتصور هذا الرجل. أول ما تعرفت عليه في مجلة ديوجين التي تصدرها اليونسكو في مقال بعنوان: "الإسلام في مواجهة التطور". وجدت عند أركون شيئاً يدعو إلى التأمل. لم يكن مثل مالك بن نبي، بل كان يسخر من مالك بن نبي ويعتبره أنه لم يعلم الحداثة في أفكاره وتصوراته. ولكن لا حرج، فالمتعاصرون لا قدرة لهم على فهم بعضهم بعضاً. سخريته لا تقلل من قيمة مالك عندي. وأركون ليس فارغاً. إنه يحمل هم المسلمين وربما ساعد إلحاح أركون على ضرورة ثيولوجيا جديدة للمسلمين على أن أتقدم في فهم مشكلة التوحيد، ليس على أساس إلهيات وإنما على أساس أن التوحيد مشكلة اجتماعية وسياسية واقتصادية. وفي الواقع، الرجل لم يقل كلمة واحدة في هذا الموضوع، إلا هذا العنوان الكبير الذي ظل يلازمه ويلح عليه. ولكن شعرت بصدق توجهه. إن علم الكلام وما سماه المسلمون "التوحيد"، والأسلوب الذي بحثوه به لم يكن منسجماً وملائماً لمكانة التوحيد الكبيرة. فالقرآن يعرض كلاً من التوحيد والشرك بتفصيل كبير ويضعهما في مكان مركزي عند عرض النبوات. ونحن صرفنا بشكل عجيب عن هذا الموضوع.

القرآن يهتم بالإيمان والكفر والنفاق، ونحن لم نفهم أثر هذه المفاهيم في حياة المجتمع. وإلى الآن لم نلامس بجدية هذا الموضوع. ولهذا أقول إن ما جاء به الأنبياء لم ينزل بعد إلى الأرض واقعاً، وسينزل في المستقبل وسيبدأ الناس بكشفه. فالناس كشفوا قوانين المادة ولكن إلى الآن لم يكشفوا قانون الإنسان ولا كيف نثير الطاقات الكامنة في هذا المخلوق العجيب القادر على الانتحار إن لم يتمكن من تحقيق ذاته. والإنسان قادر على أن يكون جارحة القدرة الإلهية كما يقول محمد إقبال. والعجيب أن أركون لم يذكر إقبالاً أبداً ولم يشر إليه فيما قرأت له، ولكن لم أقرأ كل ما كتب. قرأت بعض ما كتب قراءات عديدة بكل الجدية والتتبع لأتفهم مصطلحاته وأدواته المعرفية. يشرف أركون أن يضع يده على فكرة الثيولوجيا الجديدة كضرورة.

وأنا أفسر هدفه هذا بأنه تصحيح تصورنا عن الله. إننا لم نعرف الله من خلال خلقه وتاريخ الخلق. والقرآن يذكر هذا حين يقول: "ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين"، ويقول "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية". إن التعرف السنني على الله هو ما ينتظره المسلمون. فالعالم الإسلامي ارتد إلى الأفكار الجاهلية بعد أن فقد الرشد وضاع عنه ما جاء به الأنبياء. فالأنبياء جاءوا بالانقلاب الاجتماعي حسب ما أفهم ولقد شدني هذا المفهوم شداً غير عادي وهو ما جعلني أقدر قيمة ما جاءوا به. أرشد الله العلي القدير، الذي تدخل في إرشاد خلقه، بما أرسل من رسل. فكما لم نتفهم الله كذلك لم نتفهم رسالة الأنبياء وسنكتشفها من جديد وعند ذلك نكون كشفنا أن ما جاء به الأنبياء في وقت مبكر، والذي هو جدير بأن ينسب إلى خالق الوجود، لم نمارسه بعد. والذي يدل على ذلك صعوبة ترك المجتمعات للشرك وانغماسهم فيه وصعوبة فهم التوحيد وغيابهم عنه. فالقرآن يقول عن الجاهلين بأنهم قالوا: "أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب". ومثله تماماً أن يكون الناس متساوين. "أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين"، ويقول: "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون". إننا لم ندرك ما جاء به الأنبياء من الانقلاب الاجتماعي والكشف عن السحر العظيم، عن السحر الذي أحيطت بالطاغوت وعاش فيه العالم دهوراً كما عاش الناس وهم يظنون أن الشمس تدور حولهم بينما الأمر بالعكس تماماً. وينبغي أن نكشف المشكلة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بهذا المستوى.

1 _ تعالوا إلى كلمة سواء، في المشكلة الاجتماعية

2 _ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، في المشكلة السياسية.

3 _ أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين.

إن الكتّاب الاجتماعيين يقولون أن ماركس كشف التلاعب بالاقتصاد ولكن لم يكن ذلك كافياً لأنه كان في حاجة إلى تشريح، لا بل إلى نفخ الروح فيه كي ينبض ويتحرك. يهتم أركون كثيراً بالتصور الأسطوري للعالم. وأنا أحب أن أطلق على هذا "التصور الخارقي" بدل "الأسطوري". لا نتصور أن الله يعمل على أساس السنن بينما الله يقول: "سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا". هذا يعني ثبات السنة وتسخير الكون للإنسان وقدرة الإنسان على كشف السنن وتسخيرها. ومهما ظننا أننا تخلصنا من سيطرة الخوارق نكتشف أننا نستريح إلى فهم كون الله وخلقه على أساس الخوارق وليس على أساس السنن. وهذا هو الذي يجلب علينا المصائب.

يلح أركون على أن نقوم بفصل الدين عن الدولة، وهذا ما يحبط ويناقض دعوته إلى ثيولوجيا جديدة. فالثيولوجيا الجديدة هي التي ستجعل الدين علماً. وهو يلح بنفس الدرجة على الثيولوجيا وعلى فصل الدين، وهذا هو مكان الخلط الذي لم يتمكن أركون من الخروج منه. ومع ذلك لا نقول إنه لا يملك حنيناً إلى التفاهم بين العلم والدين. وفي كتابه الأخير، "نافذة على الإسلام" نجد تطوراً أكبر نحو ضرورة التآلف بين العلم والدين على أساس معرفة جديدة. وينقل في ذلك الكتاب فقرة عن هابرماز، الفيلسوف الألماني، على ضرورة إحياء الميثاق مع الله والذي بشر به الأنبياء: "إن احتجاج المرء على الخيانة ليس فقط احتجاجاً باسمه الخاص، بل هو احتجاج باسم الآخرين. إن كل إنسان حليف بالقوة في النضال ضد الخيانة بمن فيهم من يخون نفسه ويخونني.

إن مفهوم الأمانة لا يمكن التفكير فيه دون ميثاق شامل بالقوة ضد الخيانة".

إن أركون يلح علينا أن نقوم بالفصل الذي قام به العالم الغربي بين الدين والدولة. ولكن الأنبياء جاءوا ليأتلف الدين والدولة. وعند أركون بعض الخلط في هذا، لأنه يدعونا إلى مثل الفصل الذي على أساسه بنى العالم الغربي حياته، في حين هو نفسه لا يرتاح إلى ذلك. فهو يدعو إلى معرفة جديدة متطورة تؤلف بين الدين والدولة، بين الدين والسياسة. ولكن بطريقة أخرى فإن عوام المسلمين أيضاً فصلوا الدين عن الدولة حين تشربوا بعد الدين عن السياسة،

فقد فهموا السياسة على أنها بنيت على الخيانة والغدر والانتهازية والتشاحن، بينما الدين على الصدق والأمانة والإحسان والإيثار. فكيف يمكن أن يجتمع الاثنان في أذهانهم ؟

إن الأنبياء جعلوا السياسة أمانةً وصدقاً وإحساناً. إنهم بسطوا سلطانهم الصادق على السياسة الغادرة. وما يعانيه العالم الآن، من الأمم المتحدة إلى أصغر الدول الإسلامية، هو كيف تجعل السياسة صدقاً وأمانة. وربما هذا هو الذي يسوغ لنا حديث الرسول عن الإمارة حين قال لأصحابه: إنكم ستحرصون عليها وإنها يوم القيامة حسرة وندامة، نعمت المرضعة وبئست الفاطمة. وقال أيضاً، إنا لا نولي من طلب الولاية ومن طلب الولاية وكل إلى نفسه ومن أكره عليه أعين.

والحاصل إن البشرية تتقدم ببطء شديد إلى الأمانة وإلى السواء وإلى التزام المبدأ من طرف واحد. وستزيد مناعتنا الفكرية ولن يتمكن الآخر من إخراجك من ملتك من ملة الأمانة، إلى ملة الخيانة. هنا كان الفصل بين العالمين: عالم الأنبياء المبني على الأمانة، وعالم الأقوام المبني على الخيانة. والحداثة الآن تراجع نفسها بعناوين جديدة. مثل "ما بعد الحداثة"، وكلمات هابرماز واقتباس أركون وتصيده لهذه الكلمات يدل على أن عالماً جديداً يلوح في الأفق معيداً معه ما كان عيسى عليه السلام حزن عليه حين قال: "ضيعتم أقدس شيء في الناموس"، الرحمة، الأمانة، الإحسان. إن الجهاز الاجتماعي لا يمكن أن يعمل بانسجام مع الخيانة والامتيازات. إن الجهاز الذي يأكله صدأ الخيانة والامتيازات لن يدوم طويلاً، فسيتصدع كما تصدع في حربي الخليج. وإن لم نرجع إلى كلمة السواء فسيكون التصدع أشد وأقسى. إن العالم الذي تصدع لا يمكن التئامه بمزيد من الخيانة للميثاق الذي كتبه الله في قلوب عباده الذين اجتالتهم الشياطين. إننا في عصر عجيب جديد. علينا أن نصرح ونعلن البشارة والإنذار كما فعل الأنبياء. والآن لم يعد يوجد أنبياء وإنما الآمرون بالقسط من الناس والربانيون. فعلى هؤلاء أن يحملوا الأمانة الثقيلة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال. وحملها الإنسان، الذي سيحقق علم الله فيه ويتخلص من الفساد وسفك الدماء، وسيكشف أن بغيه على نفسه. "يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم".

حين نرى ما وصل إليه الإنسان الذي كان عارياً يعيش في الكهف سنعرف أن علم الله سيتحقق فيه أيضاً. فالله رد على توقعات الملائكة من فساد الإنسان وسفكه الدماء: "إني أعلم ما لا تعلمون." والإنسان ما يزال يعيش على توقعات الملائكة ولم يحقق علم الله فيه بعد.

ليس محمد أركون كما ينظر إليه المسلمون، أنه خارج عن الإسلام وأسير للغرب. فأركون يكافح على جبهتين: مع قومه ومع المستشرقين أيضاً. ويريد أن يقول: إن الإسلام وما جاء به محمد وكل الأنبياء شيء واحد وأن كل الذين يركزون على الفروق –أن المسيح ترك ما لقيصر لقيصر وأن المسلمين ليسوا كذلك– يخلقون نزاعات عشائرية ويركزون على المحلي والخصوصي بدل الإنساني والعلمي والعالمي. ينبغي أن لا نحّقر الشيء الجديد الذي أضافه أركون. إن الإضافات الجديدة والتبشير بعالم آخر أمر مهم. ونحن ينبغي أن نتعامل مع الناس بأن نتقبل منهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن تقصيراتهم، ومن منا من غير قصور. علينا أن نقدر ما كافحوا من أجله ولقوا الأمرين من جهات متعددة. "كان عبد القادر الجيلاني يقول: عثر الحلاج ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده وأنا آخذ بيد كل من عثر". إن هذا النموذج هو الذي يجمع الناس نحو الهدف الأسمى وعلينا أن نقدر هذا. وأما قوله من أن من يستشهد بالقرآن يثير كل المشكلات للعبور من العصر الأسطوري إلى العصر العلمي لا يخلو من جانب كبير من الصواب ابتداءً من علي عليه السلام الذي قال: إن القرآن حمال أوجه وكل كلام حمال أوجه ولولا العودة إلى الواقع لما كان للكلام معنىً. والقرآن يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً. والكتاب ككتاب ليس كافياً للهداية. وأنا أشرت سابقاً إلى هذا حين ذكرت من أن النص يخدم ويخون ولا يمكن نقل الخبرة بدون نص ولا فائدة من النص بدون معنى، ولا يمكن تحرير المعنى بدون رجوع إلى الواقع وهناك يتحصحص الحق. فمن هنا كان مرجع القرآن هو النظر في آيات الآفاق والأنفس لأنها هي التي ستصحح فهمنا للقرآن. وبدون ذلك سيكون القرآن بيد كل الأطراف يتلاعب به من يشاء كالذين رفعوا المصاحف على الرماح. والطرف الذي رفع المصاحف لم يكن الطرف الصادق ولا أقرب الناس إلى الحق. وإلى يومنا هذا نقوم بمزايدات للتمسك بالقرآن والنصوص.

كتب السيد حسين فضل الله مقالة عن الوحدة الإسلامية، في المجلة الثقافية الإسلامية التي تصدرها المستشارية الإيرانية في دمشق، لم يذكر فيها آية واحدة من كتاب، ولا حديثاً واحداً ولا أثراً من آثار السلف ولا اسم شخص من آباء التراث، ولكن ذكر في ذلك المقال كلمة "الواقع" ومشتقاتها أكثر من سبعين مرة. وأنا كتبت مقالة حول هذا ونشرت في نفس المجلة.

القرآن لا ينطق بنفسه وإنما ينطق به الرجال. ومن هنا أيضاً قول الرسول أن الناس يمكن أن لا يستفيدوا من كتاب الله، فقال عن اليهود والنصارى أن بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء. ونحن كذلك الآن. إن الوقائع والأحداث وأيام الله هي التي ستصحح فهمنا للكتاب. فالأمل أن تكون الاستفادة في المستقبل من كتاب رب العالمين بشهادة آيات الآفاق والأنفس وعند ذلك سيكف الناس عن تفسيراتهم واحتجاجاتهم وسيسلمون تسليماً.

يقول أركون في آخر كتاب تاريخية الفكر العربي الإسلامي تحت عنوان، "خاتمة في قوة الظاهرة القرآنية": بقي علينا أن نستعرض شيئاً أكثر عمقاً قد يمكننا من تفسير نتائجها وسبب تأثيرها عبر القرون. ثم يقول: "نعم هناك قوة ما تعبر التاريخ والقرون. إنها هنا موجودة دون أن تستطيع رصد مكانها الدقيق في مكان محدد من القرآن أو من كلام المسيح. كيف أمكن لهذه القوة أن تنتج الظاهرة المدهشة: القرآن، والتي انفجرت هنا وليس في مكان آخر. هذا هو السؤال الكبير الجبار الذي ينتظر الجواب. وينبغي أن نجيب عنه بشكل مختلف عما كان قد فعله المستشرقون. إننا فيما يخصنا ندعو إلى افتتاح بحث آخر أكثر اتساعاً يتناول بالفحص العميق كل التاريخ الديني لمنطقة الشرق الأوسط. بهذا العمل نكون قد قمنا بمساهمة فعالة في تقدم وتجديد العلوم الإنسانية، وذلك من خلال النموذج الإسلامي. هذا هو مجال الإسلاميات التطبيقية التي نناضل بكل حماس من أجل تشييد صرحها".

إنني قومت ولم أقوم هذه الدعوة الأركونية.

السؤال الثاني عشر والأخير: ما موقفكم من الاتجاهات الجديدة في تأويل النصوص المقدسة (الكتاب الكريم والسنة الشريفة) التي تذهب إلى أن أية محاولة لاستخلاص حقيقة من النص تنفتح على تعدد القراءات، ذلك أنه لا حقيقة كلية يمكن القبض عليها من النص. بل حتى محاولات تشريح وتحليل النصوص تغدو مخاتلة ومخادعة مهما ادعت النزاهة والموضوعية. ألا يعني ذلك بنسبية الحقيقة بل نفي الحقيقة التي يشي بها النص المقدس؟

الجواب: يا سيدي الكريم، أعد ذكر من أهوى ولو بملام. سنظل في مشكلة النص نأخذ ونعطي ولا نصل إلى نتيجة ما دمنا نظن أن الحقيقة في النص. الحقيقة خارج النص ولكن لن نصل إلى الحقيقة إلا بواسطة النص. وما هو النص؟ النص رمز صوتي أو ضوئي. نحن نصطلح على النص أنه يشير إلى الواقع وينقل عنه. ولا بد من الاعتراف الأولي أن المعنى لا يمكن نقله إلا بالنص وبالرمز. بدون النص والرمز لا يمكن أن نحتفظ بالخبرة. وبدون خبرة لا قيمة للنص. إن النص حامل فقط للمعنى. ولهذا العلاقة بين النص والمعنى تكاملية، لا يصح أحدهما بدون الآخر. ولا يمكن نقل المعنى من دماغ إلى آخر بدون النص. وإذا أردنا أن نتحقق من المعنى فالمرجع هو المعنى الخارجي وليس النص، وهذا الذي أعيده وأكرره بل وأقول أن صاحب النص يقول: ارجع إلى الواقع لتتأكد من صحة النص. "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق". ولهذا يقولون، كما في سؤالك، أن لا حقيقة كلية يمكن القبض عليها من النص. فما يخطر على بالنا الآن عند ذكر كلمتي "الأرض" و"السماء" ليس هو ما كان يخطر على بال من نزل عليهم القرآن.

إذن، النص ثابت والمعنى متحرك. ونحن ينبغي أن نرجع إلى المصدر الأساسي. هذا ما يأمر به العلم، وهذا ما يأمر به الله، وهذا ما نجده في أمثال العرب حين قالوا: إن يبغي عليك قومك لا يبغي عليك القمر. القمر لن يتقدم ولن يتأخر ولن يتغير. هو كما هو وإنما نحن الذين نتغير في مفاهيمنا وأفكارنا. لو كانت الحقيقة في النص لأحرقتنا كلمة النار حين ننطق بها وهذا لا يكون.

هذه هي الإشكالية. وإذا فهمناها نرتاح ونطمئن ونقول إن شهِدت لك آيات الآفاق والأنفس فقد أمسكت بالحقيقة حتى يأتي ما هو أفضل شهادة وأحسن استخداماً. "قل فأتوا بكتاب أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين". "ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون."

لا بد من زوجين "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون". بدون زوجين لا ذرية ولا إنجاب، وبدون زوجي النص والمعنى سنظل نعيش في العقم والتيه والخيالات والهلوسات. لهذا خلق الله الزوجين وقال عن النص والكلمة "فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون".

لما نحلل ماذا يحدث حين ننطق نجد أن للكلام أربعة أركان: متكلم، وسامع، وموضوع متحدث عنه، وكلام يحمل المعنى. ولا يصل المعنى إلينا بدون الكلمة، لأن الكلمة هي حامل المعنى. ولكن لا يوثق بالكلمة أيضاً بدون الرجوع إلى الواقع المشار إليه. والدليل الشمس، "ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً" فقد انخدع العالم جميعاً حين فسروا أنها تدور حولنا.

والحمد لله رب العالمين.

جودت سعيد

3 حزيران 1998